

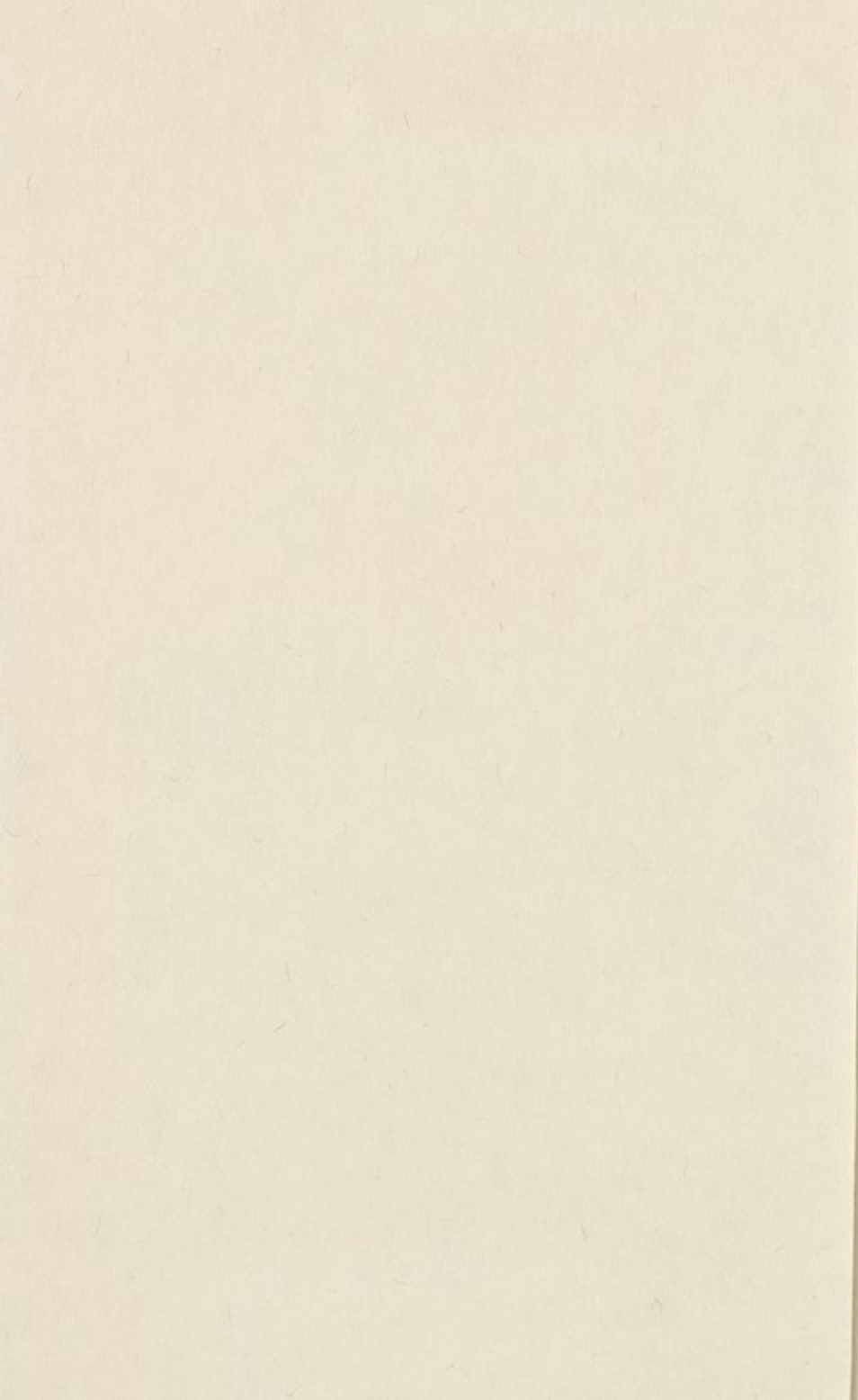




PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

This book is due on the latest date stamped below. Please return or renew by this date.

--	--



تَاتِجُ السُّوَدَانِ

فِي الْعُصُورِ الْقَدِيمَةِ

تأليف

جمال البجاويش

دكتور حسن سليمان محمود

مطابع الزمان

تاريخ السودان

في العصور القريية

Mahmūd -

تأليف

جمال الجاويش

دكتور حسن سليمان محمود

طابع الزمان


(Arab)

DT108

.1

M33

الطابعون مطبعة الزمان - الخرطوم



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

عندما قمنا بتأليف كتاب « تاريخ السودان من أقدم العصور الى الآن » في العام الماضي ، وضح لنا جليا أن المكتبة العربية السودانية تفتقر الى كتاب يوضح بسهولة ويسر « تاريخ السودان في العصور القديمة » . ولم يمض زمن طويل حتى تعرفنا على السيد الأستاذ مندور المهدي كبير مفتشي التاريخ بوزارة المعارف السودانية ، وتطرق الحديث فيما بيننا الى فكرة تأليف كتاب عن هذه الحقبة في تاريخ السودان . وقد وجدنا منه تشجيعا بالغا ، فقوى عزمنا على القيام بهذا المجهود العلمي خدمة لطلاب العلم المهتمين بدراسة تاريخ السودان عامة ، وبدراسة هذه الحقبة منه بصفة خاصة وحرصنا على أن يكون الكتاب ليس مطولا مملا ولا مختصرا مخللا ، بل جعلنا هدفنا الأول هو السهولة في الأسلوب والوضوح في المعنى ، مع اتخاذ جانب التبسيط وعدم الاسترسال في التفاصيل التي تبعدنا عن الهدف المنشود .

كما حرصنا على تزويد الكتاب بعدة لوحات وخرائط لتساعد القارئ على تتبع المعلومات التي وردت فيه . فان كنا قد وفقنا فهذا من فضل الله وتوفيقه ، وان كان فيه شيء من القصور فمرده الينا والعصمة لله ، وليكن هذا التقصير حافزا لغيرنا على الاجادة والعمل في هذا الحقل حتى نكون قد أدينا للسودان الحبيب خدمة علمية جليلة .

واننا ننتهز هذه الفرصة فنقدم جزيل شكرنا للسيد الأستاذ مندور المهدي الذي تفضل مشكورا بمساعدتنا بتوجيهاته ونصائحه حتى ظهر الكتاب بالصورة التي ترونها بين أيديكم .

المؤلفان

والله ولي التوفيق



الفصل الأول

السودان في عصور ما قبل التاريخ

أقدم انسان عرف في السودان :

لما كان الانسان هو اصل الحضارة ومنشئها ، ولما كان السودان محاور
دراستنا وجب علينا أن نعرف شيئاً عن أصل الانسان فيه . واذا صح
القول بأن الانسان قد انحدر من القرود ، التي تقطن اقليم البحيرات في
أواسط افريقية ، فانه من المحتمل أن يكون الانسان الأول في السودان
قد عاش مدة ربما كانت أطول من أى مدة عاشها في أى بقعة من بقاع
العالم . ولكننا لا نعلم بعد ان كان الانسان الأول ، الذى عاش في السودان
ينتمى الى الانسان الحديث أم لا . ولكننا نعلم علم اليقين أنه حين كان
النيل يجرى عند وادى حلفا في مستوى يعلو بنحو مئة وخمسين قدماً عن
مستواء الحالى ، كان الانسان يستعمل آلاته المتخذة من الحصاة برعاية ،
ومن المحتمل أن يكون الانسان قد عاش على الأرض حوالى نصف
مليون سنة ليعرف كيف يصنع من هذه الآلات البدائية . آلات متقنة
اصنع كالفؤوس اليدوية ، التي وجدت بالقرب من أمدرمان .
وانسان منجعة يعتبر الى الآن أقدم انسان عرف في السودان ، وقصته
أنه فى عام ١٩٢٤ بينما كان مفتش مركز منجعة يتجول على النيل الأزرق ،
الممتد أمام منزله رأى دهمسة غريبة تشبه جمجمة حيوان ، فاقترب المفتش
منها وأخذها بين يديه يتفحصها انها تشبه جمجمة الانسان ، ولكن جبهتها
ضيقة ، وماءة ، الى الورا ، وفكها بارزان ، وعيناها ضيقتان محجورتان .

دهش المفتش لما رأى ، وأخذ الجمجمة الى بيته وهنا قضى زمنا طويلا
فحص ، ويقارن بينها وبين ما قرأ وما أخذ يقرأ في كتب التاريخ ، لعله يكون
قد عثر على كشف أثرى يضعه في منزلة المكتشفين من علماء الآثار في
شتى أقطار العالم . فعلماء الآثار مازالت تشغلهم قصة الانسان الأول ،
فهم كانوا وما زالوا يرتادون شتى بقاع الأرض يحفرونها وينبشون أعماق
الكهوف وقيعان البحيرات يبحثون عن أدوات الانسان الأول وأكوام
عظامه ، والصور التي خلفها على جدران الكهوف . انهم يريدون أن يعرفوا
عمر الانسان على الأرض ، متى خلق ، وكيف عاش ، وكيف تطور ؟

علماء الآثار يفحصون الجمجمة :

بعث مفتش مركز سنجة الى علماء الآثار في الخرطوم ، وبعد أن فحصها
هؤلاء أرسلوها بدورهم الى بعض علماء الآثار في العالم .
وقد استطاع العلماء معرفة بعض المعلومات النافعة عن جمجمة انسان
سنجة . فتبين لهم أن صاحب هذه الجمجمة يرجع تاريخه الى حوالي ٢٥٠
الف سنة قبل الميلاد ، وأنه يشبه لى حد ما أشكال أفراد قبيلة البوشمن
Enshmen أو البشامنه ، التي تعيش في جنوب غرب افريقية ، في صحراء
كلهاري ، وأن نوع انسان سنجة كان في وقت ما منتشرا في كثير من جهات
افريقية . وتبين للعلماء كذلك أن بعض الآلات والأدوات من الشظايا الحجرية ،
التي عثر عليها المفتش في موضع الجمجمة على عمق ٢٨ قدما تحت سطح
الأرض ، والتي كان يستعملها انسان سنجة ، تبين بوضوح الصلة في عمل
الأدوات بينه وبين انسان نياندرتال ، الذي كان أكثر أجناس الانسان
القديم انتشارا في أوروبا ، والذي عاش في نفس عصر انسان سنجة .
هذا جزء من قصة انسان من أوائل الناس الذين عاشوا في السودان ،

ولا نستطيع أن نقطع بأنه انسان السودان الأول . وربما عثر العلماء في السودان على انسان اقدم من انسان سنجة ، وقد تكون انت أحداً أولئك العلماء ، فكن دقيق الملاحظة في كل ما حولك .

الانسان الأول في غير السودان :

ليس انسان سنجة أول انسان عرف على وجه البسيطة ، فقد دلت الحفريات على ان أقدم انسان عرف في العالم - الى الآن - وجد في جزيرة جاوة سنة ١٨٩١ ، ولكن انسان جاوة لم يكن انسانا بالمعنى الذي نعرفه الآن ، بل كان أقرب الى القرد منه الى الانسان ، حتى ان العلماء أطلقوا عليه « الانسان القرد المعتدل القامة » . وكان حجم مخ هذا الانسان كما قرر العلماء بين مخ القرد ، ومخ الانسان ، وكانت جمجمته كثيفة وثقيلة ، وكانت الجبهة منخفضة . وعظام الحاجبين بارزة الى الامام ، وكذلك عظام الوجنتين وكان طوله حوالى خمسة اقدام وست بوصات ، ولكن ذراعيه كاتتا طويلتين بالنسبة للجسم .

وتلا ذلك كشاف أخرى في جهات متعلية منها : انسان الصين ، الذى كشف عنه سنة ١٩٢٧ على بعد ٤٢ ك م من بكين ، وكان هناك اختلاف بين انسان جاوة ، وانسان الصين . وقد حدث خلاف كبير بين العلماء في صلة كل منهما بالانسان الحديث ، الذى نعرفه الآن . ولعل أفضل الآراء أن تقول : ان حفريات الشرق الأقصى عبارة عن مثلين لانسان واحد في حالة بدائية . ولكنهما لا يبعدان كثيرا عن الخط الذى انحدر منه الانسان الحديث ، وأن بينهما قرابة تبعث على الاعتقاد بوجود جد مشترك لهما . ولا يعنى وجود أقدم الحفريات في جاوة وبكين أن وجود الانسان البدائي ، كان قاصرا على شرق آسيا ، وأن الانسان تطور في هذا الاقليم ،

وانما رجع ذلك الى الصدفة ، ذلك لأنه وجد بالفعل سنة ١٩٣٥ ، الانسان الافريقي ، أو نسان «تيارا» نسبة الى بحيرة «نيارا» بشرق افريقية . وقد وجدت أجزاء من جمجمة على شكل حفرة مميكة ، ولوحظ أن بها شبيها من جسامهم بكيين ، مع بعض الفروق كصغر الجبهة مثلا .

السودان في عصر انسان سنجة :

ان تاريخ البشرية في أى قطر يعتمد على أحواله الجغرافية ، التى تعتمد بدورها على جيولوجية الاقليم ، وتعتمد كذلك على الظروف المناخية ، التى تكون أسرع تغييرا من الأحوال الجيولوجية . فبينما نجد الاحوال الجيولوجية تفسر لنا السر في وجود تلك التعرجات الغريبة في مجرى النيل وفي صلاحية بعض أجزاء ذلك المجرى للملاحة ، وفي كثرة الجنادل الصخرية في البعض الآخر نجد ان الأحوال المناخية تعرفنا أن مناخ السودان الآن لم يكن كما كان عليه في عهد نسان سنجة . فوجود التلال الرملية في كردفان تدل على أنها كانت في الماضى أكثر جفافا مما هى عليه الآن ، ذلك لأن الأمطار التى تسقط عليها اليوم قد عملت على تثبيت تلك الكشبان الرملية بواسطة الأعشاب التى تغذيها . وقد لا تختلف ظروف كردفان في الماضى ، عن الظروف السائدة في دنقلة اليوم ، حيث ان هذه الظروف تساعد على بقاء التلال الرملية وتزيدها .

كذلك تدل الآلات الحجرية ، وبقايا الآنية الفخارية ، التى خلفها الانسان في الصحراء ، على أن هذه الجهات لم تكن دائما مجدية ، بل كانت ذات أمطار ومستنقعات وغيابات تعيش فيها الحيوانات ، كوحيد القرن وفرس البحر . والأفيال ، مثل التى نجدها الآن في أقصى الجنوب . كما تدل المدرجات النهرية الممتدة على جانبي النيل ، وأن النهر كان أكثر



شكل ١
الوديان

اتساعا وأنغر ماء ، ذلك لأنه من السهل ان يشاهد الرواسب الحصوية التي خلفها النهر على ارتفاع مئة وخمسين قدما فوق سطح النهر الحالي ، وعلى بعد عدة أميال من شاطئ النهر فمثلا ملاعب الكرة التابعة لمدرسة واد سيدنا الثانوية كانت تقع في قاع النهر ، كذلك بالقرب من العظبرة تستطيع أن ترى الآن آثار الغرين ، التي رسبها النهر في تلك الأزمنة السحيقة ، عندما كان يغمر تلك الجهات .

وربما كانت الوديان كوادى الملك والقعب والمقدم ، أنهارا تصب في النيل كما كان خور بركة يمتد الى البحر الأحمر ، وخور القاش يصب في العظبرة (شكل ١)

من ذلك نرى أن هذه الظروف المناخية الحالية لم تكن هي السائدة في الماضي بل وجدت في الزمن الجيولوجى الرابع أو عصر البليستوسين أحوال مناخية تختلف عما يسود العالم في الوقت الحاضر . فكان معظم أوروبا مكسوا بالجليد ، على حين كانت الاقاليم الصحراوية في شمال افريقية وجنوب غرب آسيا ذات مناخ يشبه مناخ البحر المتوسط الحالى . ويعرف هذا العصر بالعصر الجليدى فى أوروبا ، والعصر المطير فى المناطق الصحراوية الجافة . وكانت هذه الاقاليم الصحراوية فى العصر المطير ذات ثروة نباتية من الحشائش والأشجار ، كما كانت ذات ثروة حيوانية غنية .

الحياة البدائية لانسان سنجة :

لم تكن فى السودان هذا العهد صحارى كالتم نشاهدها اليوم فى النوبة والعطور ، فتمتد كانت هذه الصحارى تغطى بالغابات نظرا لغزارة الأمطار وبالتالي كانت حياة الناس فى هذا العصر أرقى وأسهل من حياة العرب فى شمال السودان اليوم ، وذلك لوفرة الماء والنبات والحيوان .

كانت حياتهم بدائية ، ولم تكن لهم المقدرة على استغلال ما حبتهم به الطبيعة من خير وفير ، فلم يستفيدوا من الأراضى الخصبة والمياه الكثيرة لأنهم لم يكونوا قد عرفوا الزراعة بعد ، كذلك لم تكن لهم القدرة على استئناس وتأليف الحيوانات المتوحشة للاستفادة من ألبانها ولحومها وركوبها كطريقة للمواصلات وما الى ذلك من الأشياء الكثيرة التى يستفيدها الانسان اليوم من الحيوانات المختلفة .

ولاشك ان انسان السودان فى هذا العهد ، كانت آلاته التى استعملها قليلة جدا وبدائية فى صنعها ، وربما صنع آلات من الخشب والعظم ، ولم تصل اليها هذه الآلات بسبب تقادم العهد عليها . ولكن من حسن الحظ أن هذا الانسان القديم صنع آلات من الحجارة أيضا فوصلتنا ، ودلت بذلك على درجة حضارته .

استخدم هذه الآلات الحجرية البسيطة فى حفر الأرض وقطع الأخشاب وصيد الحيوانات ، ذلك لأن حياتهم كانت تتركز على صيد الحيوانات . وكانوا يرحلون من مكان الى آخر فى طلبها فكأنوا يقتلون الحيوانات الصغيرة برميها بالحجارة ثم يمزقونها بأيديهم وبأسنانهم ويأكلونها نيئة . وربما قتل أحدهم الآخر وأكل مخه ، بعد كسر الجمجمة بالحجر ، على حين غفلة منه وذلك عندما لا يوفق فى صيده .

أطوار حضارة الانسان فى عصر ما قبل التاريخ :

فى الوقت الذى كان الانسان فى السودان يعيش بهذه الطريقة ، كان الانسان فى جهات أخرى من العالم (افريقية وآسيا وأوربا) يعيش بنفس الطريقة ، ذلك لأن الأدوات الحجرية التى كشفت فى تلك الجهات وجدت فى حالة تشبه تلك التى كان يستعملها انسان سنجة ، ولقد اصطلح العلماء على تسمية هذه الفترة بالعصر الحجرى القديم .



شکل (۶)
فاس مجریه



شکل ۲



شکل ۴

العصر الحجري القديم :

وقد قسم المؤرخون هذا العصر الى ثلاثة أقسام هي :

(١) عصر حجري قديم أسفل ، وكانت الآلات السائدة فيه هي التي تسمى بالفؤوس الحجرية ، وهي آلات مصنوعة من قلب كتلة الصخر بمعنى أن كتلة الصخر كلها تحول الى واحدة ويبين ذلك (شكل ٢) ، وانك اذا ذهبت الى مصلحة الآثار السودانية أمكنك أن تشاهد بعض هذه الفؤوس التي وجدت بجهة عطبرة .

(ب) عصر حجري قديم أوسط . وفيه كانت تصنع الآلات من شظايا الصوان أى أن كتلة الصخر كانت تقصص الى عدة آلات كالمكاشط والسكاكين مثل التي وجدت في خور أبي عنجة (قرب أم درمان) ويبين ذلك (شكل ٣) .

(ج) عصر حجري قديم أعلى ، وهو الذي تعلم فيه الانسان صنع أدوات حجرية أحسن وأدق من السابقة ، فكان لسكاكينهم نصال طويلة رفيعة ، وحدود مرهفة ، وصنعوا كذلك مجاقر استخدمها فنانونهم في نصت تماثيل الانسان والحيوان في الحجر . ومن الممكن مشاهدة هذه النماذج في مصلحة الآثار السودانية حيث وجدت أدوات حجرية صغيرة في سكة المحيلة (ما بين كريمة ودقلا) ، وهذا النوع هو أحدث الأدوات الحجرية التي وجدت في السودان (شكل ٤) .

وقبل مئة سنة تقريبا ، كان الهنود الحمر يصنعون مثل هذه الآلات الحجرية ، والى يومنا هذا نجد البوشمن Ensham ، وسكان استراليا الأصليين يستعملون مثل هذه الآلات .

ونظرا لأن الجو كان معتدلا في السنوات الأولى من العصرى الحجري

القديم لم يحس الانسان بحاجة شديدة الى الملابس أو المأوى ، ومن المحتمل أنه كان يعيش معظم أيامه في المرء قرب مجارى الأنهار ، فقد كانت انضرورة تلجئة الى ذلك ، لأنه لم تكن لديه أو ان يحمل فيها الماء ، فلما اشتد البرد فى الشطر الأخير من هذا العصر ، التجأ الناس فى الشتاء الى مداخل الكهوف المفتوحة ، وكانوا فى بعض الأحيان يقيمون فى الصيف أكواخا من الشجيرات ، وشرعوا فى الوقت نفسه يتخذون لباسا من جلد الحيوان .

النار : وعلى الرغم من أن انسان هذا العصر عرف النار ، الا أنه لم يعرف كيف يستعملها . ولا نعرف كيف ومتى اكتشف الانسان النار ، ولعل البرق نزل بشجرة فأشعل النار فيها . أو أن شرارة انبعثت من احتكاك عصاة بأخرى . ومن المحتمل فيما يظهر أن الناس لم يعرفوا فى أول الأمر كيف يبعثون نارا لم تكن لها وجود . فاذا كان هذا الفرض صحيحا فانهم فيما يظن قد عنوا عناية كبيرة بالابقاء على الشعلة التى كانت لديهم . ولا شك ان اليوم الذى اكتشف فيه الرجل أو المرأة أن النار يمكن استخدامها كلما دعت الحاجة اليها . كان يوما عظيما .

ولقد كانت النار خادما نافعا للانسان ، فهى تطهو الطعام ، وترد الحيوانات المفترسة مرتاعة ، وتحرق الفضلات ، وتجوف جزوع الأشجار اللازمة لصنع المراكب . وتجعل جو الكهف دافئا مقبولا وخاصة فى الشتاء . ولما عرف الانسان كيف يصنع الفخار ، أحرقه بالنار فزاد صلابة . وان الحياة - الآن - لتخلو من البهجة والتحضر ، لولا وجود النار . فالخبز والفخار والآلات المعدنية وقاطرات السكك الحديدية والبواخر والعربات . . الخ كلها نتيجة لتحكم الانسان فى استخدام النار .

نشأة اللغة : وفي نهاية العصر الحجري القديم نشأت اللغة ، ولاريب في أن الناس قد توصلوا بالإشارات للأفصاح عما يريدون . فإذا رفع أحدهم يده الى فمه كان معنى ذلك أنه جائع ، وإذا رفع قبضته في الهواء ، كان ذلك منبئاً عن الغضب ، أما إذا ألقى بنفسه على الأرض أمام آخر ، فإن هذا يدل على انه قبل أن يتخذ منه سيّداً أو حاكماً .

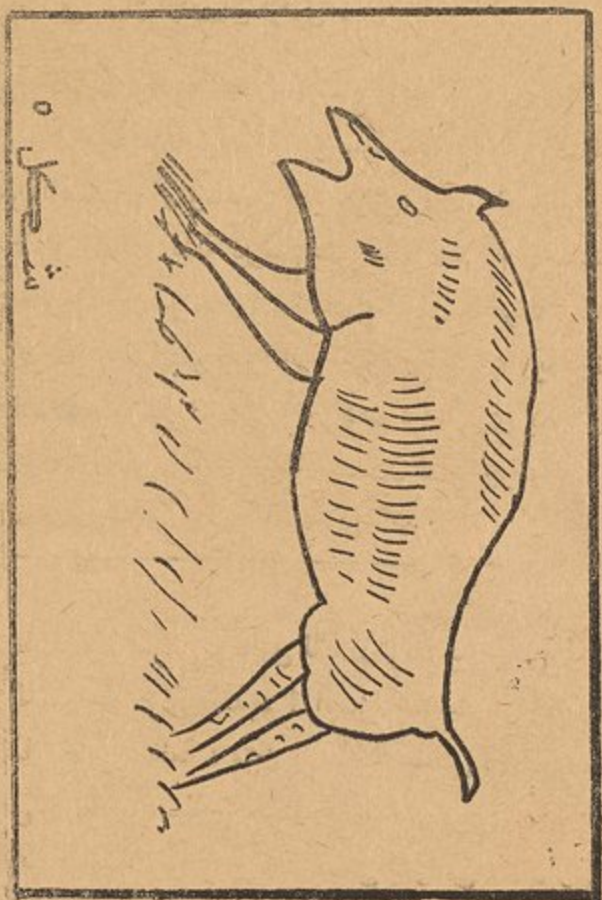
ويحتمل أن تكون النار قد لعبت دوراً في نشأة اللغة ، فالإنسان القديم تعود أن يعقد مجتمعا للاصطلاء ، نتيجة لذلك خف شعره أو زال . وربما كان فضل المرأة في نشأة اللغة أكبر من فضل الرجل ، ذلك لأن النساء كنا يجتمعن حول النار في الليل ، في وقت اشتغال أزواجهن بالصيد ، وكنا نفاهمن بالكلمات ، لأن الإشارات لم تكن ترى في الظلام فيأخذن في الحديث ، وفي سك الكلمات الجديدة التي تعبر عن المعاني والتي تخطر في أذهانهم ، ولاشك في أن محاكاة الصوت المسوع كان أصلاً في اختراع الألفاظ ، وكان الإنسان الأول يعتمد عليه كثيراً في التعبير عن أفكاره . وهكذا نشأت اللغة عندما أصبح لجماعة من الجماعات ، أو لقبيلة من القبائل مجموعة من الأصوات أو الكلمات يفهمها جميع أفرادها .

وكان استعمال اللغة دليلاً على تقدم الإنسان خطوة كبيرة الى الأمام ، فقد استطاع الناس التحدث في شؤون الحياة التي تعرض كل يوم . وأصبح أفراد القبيلة الذين كانوا يتكلمون لغة واحدة أصبح عزماً على العمل أو الصيد أو القتال معاً . وأخذ الآباء يروون للأبناء ما تبينوه من حقائق ، وما شاهدوه من فعال تنيء بالشجاعة والجرأة . ثم نقل هؤلاء الأبناء ما سمعوا الى أبنائهم . وهكذا نشأ من ذلك مجموعة من المعارف تخص القبيلة المعتقدات : ومن المدهش حقاً أن نجد في مخلفات هذا العصر أشياء ذات قيمة روحية ، وهي الرسومات الجميلة التي عثر عليها في بعض الكهوف ، وهي

رسومات لحيوانات متوحشة كبيرة كالحلوف (الخنزير) البرى (شكل ٥) والبايسن (جاموس) . أو لمناظر صيد ، ولتذكر دائما ان الحيوان كان يلعب دورا هاما فى حياة الانسان الأول .

فربما يكون قد رسم هذه الصور للتمتع بالنظر اليها ، ويعتبر هذا نوعا من الفنون ، أو لأنه يخشاها ، فعندما يرسمها تصبح له قوة التغلب عليها ، وهذا نوع من السحر ، أو رسمها تقربا اليها ، وهذا نوع من العبادة . ونجد فى عالمنا الحالى أمثلة تبرهن على مبلغ احترام الانسان لبعض الحيوانات ، فالزنج فى جنوب السودان يعبدون البقر ، ويقدمون له قربان ، وبقابل الدينكا يتخذون البقر رمزا الى القوة والغنى ، ويعدون لها أقدم المخلوقات ، فيفضلونها على نسايتهم واولادهم ، والبارى يتعبدون للحية ، ويقدمون لها القرابين من لبن وأطعمة ويعدون قتلها جريمة .
حياة الانسان فى أواخر العصر الحجرى القديم :

وقبل أن نختم هذا الموضوع ، فهل لك أن ترد الساعة الزمنية الى السنين الأخيرة من العصر الحجرى القديم ؟ افك اذا فعلت لوجدت جنسا من الرجال والنساء طويل القامة ، متين البنيان ، يعيش فى الكهوف القائمة على طول بعض الأنهار ، يصطاد السمك . فهو اذن ليس فى حاجة لكى يرتحل وراء الحيوانات ، بعد ان توفر له الغذاء على شواطئ الأنهار ، والبحيرات العذبة التى اضطر أن يلجأ اليها ويستقر بجانبها ، بعد ما تغيرت الظروف المناخية ، ووجد الدفء والجفاف . وأصبحت الحياة مستحيلة فى الجهات الجبلية والصحراوية الخالية ، وكان انحدر الناس منها الى الموارد المائية الدائمة . المحدودة المساحة ، بالنسبة للمساحات الهائلة ، التى كان ينتشر فيها سابقا ، والاستقرار بجوار تلك الموارد ، الأساس الأول ، والسبب المباشر لقيام



شکل ۰

الحضارة بوادى النيل خاصة والشرق الأدنى عامة .

وإذا تصورت أنك تعيش بين هؤلاء القوم من سكان الكهوف، لا زداد فهمك لحياتهم ، فما يطلع الصبح على الوادى ، حتى يهب سكان الكهوف من رقادهم ، فينهضون ليوم حافل بالعمل ، ويستعدون للخروج من مأواهم طلبا لصيد عظيم فيجهزون سلاحهم ، كما يعد الأولاد الذين يتخلفون سلاحهم أيضا ، ذلك أن العمل يقتضيهم في غيبة الرجال ، أن يطلبوا الحيوانات الصغيرة ، التى تدب حول مسكنهم ، ويصيدون السمك ، الذى يسبح فى الغدير بالحراب ، ليعولوا النساء والأطفال والرجال المتقدمين فى السن . وقد حق على صياد شاب منهم أن ينهض اليوم بعمل أكبر من عمل غيره . وهو قد خرج من كهفه مع مشرق الشمس على الوادى ، وقصد كهفا آخر حيث تنتظره امرأة شابة ، ذلك أنه يختار فى هذا اليوم رقيقة حياته ، فإذا خرج فى غده ترك نارا مشبوبة أمام كهفه ، وامرأة تنتظر عودته ، وهو يأخذ يد الفتاة ، ويسير بها الى شيخ طاعن فى السن - هو زعيم القبيلة - حيث اذا مثل بين يديه ، وضع الشيخ ذراع الفتى على كتفها ، فتنحى للفتى اظهارا لعزمها على أن تكون زوجة ، واشعارا بأنها ستحسن خدمته . ثم يذهب الرفيقان الشابان معا الى كهف خال غير بعيد ، أسفل الوادى ، فتبادر المرأة الى جمع العشب والحطب ، ويخز الصياد على ركبتيه ممسكا بينهما قطعة من الخشب اللين ، ثم يحكها بعصاة من الخشب الصلب ، فتكون على هذه القطعة ذرات ، وتطير شرارة يدنى الصياد الشاب العشب الجاف منها فى لمح البصر فتهب شعلة تكون المرأة حولها المزيد من العشب والحطب ، وهكذا تشتعل أول نار فى موقد المأوى الجديد . ويأتى الصياد الشاب بلحم حيوان قتله فى أمسه ، فتطهوه رقيقته على النار

حتى اذا نضج ، التقطت من الفحم عظمة مدخنة ، ثم تضربها ضربة فتكسرها
وتناولها للرجل ، فيدفع أصبعه في طرفها الأجوف ، ويخرجها وقد علق بها
النخاع ، فيمصه حتى اذا أتى عليه ، نهش اللحم من العظمة بأسنانه القوية
البيضاء ، ولا تأكل المرأة من اللحم الا اذا امتلأ الرجل .

فاذا علت الشمس كبد السماء ، خرج الصياد الشاب ورفيقته قاصدين
الى كهف الكاهن ، وكل منهما له مطلب ، وما يبلغانه حتى يبدأ الرجل
بالسؤال ، أيسوق الكاهن اليه كثيرا من الحيوان يقتله في صيده ؟ اذا
قدر له ذلك فسوف يجلب لرفيقته اللحم لتطهوه ، والجلود لتخيطها ثيابا .
أنكون أوبته الأولى الى مسكنه مباركة بنعمة الصيد الوفير ؟

ويستمع اليه الكاهن في هدوء ، ثم ينهض فيسأله مصباحا من حجر أجوف
بالدهن ويشعله ، ثم يدخل الكهف ، ويقف الصياد دون الباب ، لأنه لا
يباح له دخوله ، ويرقب الكاهن وهو يمزج أصباغه في صدفة . ثم يعمد
الكاهن الى عصاة حرق بعضها في موقده ويرسم جاموسة وحصانا برياً
وأيلاً ، ثم يتناول أصباغه من اللون الأحمر والأسود والاصفر والاسمر ،
ويلون هذه الحيوانات . ثم يرسم آخر الامر سهماً أحمر نافذا في قلب
كل منهما . ولا يتنفس الصياد الصعداء الا اذا رأى السهام . فهو يعلم
عندئذ أن نصيبه من الحيوان كبير ، وان الكاهن قد باركه بنعمة الصيد
الوفير .

واذا خرج الكاهن من الكهف دنت منه المرأة ، وتقدمت اليه بسؤالها
أيقدر لها أن ترزق بأولاد كثيرين ، يزداد بهم في قابل الأيام عدد الصيادين
الشبان في القبيلة ؟ أيقىء عليها الكاهن نعمة الولد ؟
ويسألها حكيم القبيلة أن تعود اليه متى جاوزت الشمس السماء ست

مرات ، وعندها يكون قد نقش صورتها على العظم ، فاذا ملكت يداها هذا النقش ، اطمأنت الى نعمة الولد الكثير .
ويؤوب الزوجان من كهف الكاهن سعيدين ، بما يذل لهما من وعود ويهمان شطر كهف صانع الأدوات ، فيحصل منه الصياد على سلاحه الجديد ، وهو عبارة عن سكين لطيفة من الصوان ، سويت على هيئة ورقة رفيعة ويعد الصياد صانع الأدوات بجلد من خير ما يصطاد من حيوانات ، لقاء هذا السكين ، ولا شك في أنها تستحق هذا الثمن .

ويسمع الصياد الشاب وزوجته صراخا ، فيخفا نحوه ، فيجدا أهل القبيلة مجتمعين عند كهف الزعيم ، والعيول يملأ رحاب الجو ، حزنا على وفاة أكبر أبناء الزعيم ، وكان يرجى أن يظفقه في يوم من الايام ، ذلك أنه هبط الى النهر فتعر وشقط ، فارتطم رأسه بصخرة عظيمة .

ويدخل الكاهن كهف الزعيم ، ويتولى شباب القبيلة تجهيز الميت تحت ارشاده ، ويضعون الى جانبه اللحم ، ويحوطنون رأسه بهالة من الأصداف وينتقون خير أسلحته ، ويوسدونه بها . ثم تقبل زوجته الشابة ، فتحنى عند قدميه فيعالجها الكاهن بضربة واحدة خاطفة من فأس حجرية في يديه فتخر صريعة عند قدمي سيدها .

وهكذا يتم تأهب ابن الزعيم للرحلة الى العالم المجهول ، مزودا بطعامه وسلاحه ومصحوبا بشريكة حياته ، التي ستقوم على خدمته ، ثم يجلب التراب الأحمر الى الكهف لاهالته على الجشتين ، ذلك ان اللون الأحمر من الألوان المقدسة . فاذا تم كل هذا وضع حجر كبير أمام القبرين فيعزلهما عن مقدم الكهف حيث تسكن أسرة الزعيم .

وبذلك يمكننا أن نقول ان الحياة في العصر الحجري القديم ، كانت الى حد ما تجرى على نحو ماتجرى عليه اليوم . فالرجال والنساء يتعاونون على اقامة البيت ، وينجبون الأطفال ، ويأتى الرجال بالزاد فتطهوه النساء ، ثم يدركهم الموت فيدفنون ، وفقا للشعائر المرعية في القبيلة (١) العصر الحجري الحديث .

بداية الاستقرار :

مضى العصر الحجري القديم في المرحلة الواقعة بين سنتى ٢٠٠٠٠ ق م و ٦٠٠٠٠ ق م ، وكانت المرحلة الاخيرة منه مرحلة تحول مناخى ، هذا التحول المناخى ينتهى الى تغير كبير فى بعض الجهات حوالى سنة ٦٠٠٠ ق م . ولو أنه تأخر عن هذا التاريخ ، أى أن ظروف البرودة والمطر ظلت قائمة فى بعض البلاد الى وقت متأخر ، وان بلادا أخرى زالت فيها هذه الظروف ، وتحولت الى الدفء والجفاف . فكان الذى ساعد على وجود العصر الحجري الحديث ، هو العامل المناخى ، وأن هذا العامل المناخى يتمثل فى أمرين رئيسيين هما : الدفء والجفاف ويمكن القول بصفة عامة ان الحالة المناخية، التى يعيش فيها العالم فى الوقت الحاضر ، هى الحالة التى بدأت مع العصر الحجري الحديث .

وإذا نظرنا الى النتائج المترتبة على هذا التغير المناخى ، نجد أن هذه النتائج ، كانت العلامات التى تميز العصر الحجري الحديث ، وقد سبق القول بأن هذا التغير المناخى شمل الدفء وشمل الجفاف أما الدفء فمن شأنه أن يبعث على انتشار الناس : فالنتيجة الأولى المترتبة على الدفء ازدياد معرفة الجماعات لبعضها ، واختلاط الجماعات ببعضها : وسينتج عن هذا وجود سلالات جنسية خليطة . وبصفة عامة يمكن القول . ان

السلالات الجنسية التي نجدها في العالم في الوقت الحاضر بدأت
تتكون منذ العصر الحجري الحديث .

ولم يقتصر هذا الاختلاط على تكوين السلالات الجنسية ، بل انتقل
هذا الاختلاط من النواحي الجنسية الى النواحي الاجتماعية . فوجدت
العلاقات بين الناس وبعضهم سواء كان علاقات سلية أو علاقات حريرية .
ويمكن القول أيضا ان العلاقات كما نجدها في العالم في الوقت الحاضر
كالعلاقات الثقافية والعلاقات الاقتصادية كالتجارة وغيرها ، ثم العلاقات
غير السلمية كالاستعمار - كل هذه العلاقات - بدأت مع العصر الحجري
الحديث . وكان الدافع اليها انتشار الدفء الذي شجع على انتشار الناس
أما الجفاف : فقد أدى الى نتائج بعيدة المدى أيضا في حياة الناس

فأخذت السكنى تنحصر في كل قطر من الأقطار على شواطئ المجارى المائية
الدائمة وهي الأنهار ، لأن المطلب الاول للانسان وهو الغذاء لا بد ان يكون
مضمونا في كل يوم ، والماء جزء من الغذاء بل هو أشد نواحي الغذاء
أهمية ، واذن فبحسب توزيع المياه في العصر الحجري الحديث ، يكون
توزيع الانسان ، وترتب على هذا الوضع نتائج كبيرة في حياة الانسان
أهمها الاستقرار حول مجارى الانهار . فأخذ يبنى له مسكنا بالقرب من
هذا المجرى ، وتجمعت المساكن الى ان كونت قرية ، وتعتبر نشأة القرى
العلامة الاولى من علامات العصر الحجري الحديث . ونحن نعلم أن
العلاقتين المناخيتين الدفء والجفاف وحدا أولا في العروض الوسطى ،
ولذلك تتوقع ان تكون نشأة العصر الحجري الحديث لأول مرة في بقع
معينة من هذه العروض ، وأن هذه البقع المعينة كانت المدرسة الأولى
التي علمت الانسان حضارة العصر الحجري الحديث ، ومن أمثلة هذه

البلق المعينة : مضر وغرب آسيا التي نشأت فيها أول حضارات العصر
الحجري الحديث .

وإذا كان المطلب الأول للإنسان وهو الغذاء ، أدى به إلى الاستقرار
بالقرب من مجرى النهر ، فإن مطلباً آخر هو لذى أدى به إلى إنشاء
القرية ، وذلك أن الإنسان بعد أن ينتهي من ترتيب طعامه وشرابه يحتاج
إلى ترتيب أمنه ، وهذا الأمن لا يتوفر إلا بالاجتماع .
فضلاً عن أن الإنسان حيوان اجتماعي بطبعه ، هناك فائدة مادية من
اجتماع المساكن إلى بعضها هي التعاون المشترك في استغلال البيئة ، وفي
الدفاع ضد المعتدي حيواناً كان أو إنساناً .

والمهم أن الاستقرار ونشأة القرى كانت النتيجة الأولى لهذا التغير المناخي
وهذا الاستقرار هو العلامة الأولى التي تميز العصر الحجري الحديث .

حرفة الصيد :

وأول ما تنتظره كنتيجة لهذا الاستقرار ، هو أن يغير الإنسان أسلوبيه
في استغلال الطبيعة ، فالجماعة لم تعد تتجول طوال الوقت بل أخذت
تستقر لفترات طويلة .

وإذا كان الإنسان في العصر الحجري الحديث مازال يستخدم سلاحه
في صيد الحيوان ، أي أنه مازال يحترف حرفة الصيد ، فإن طبيعة هذه
الحرفة في هذا العصر أصبحت مختلفة عن العصر الذي سبقه . ذلك أن
الإنسان في نهاية العصر الحجري القديم كان يتجول ليبحث عن صيده ،
أما في العصر الحجري الحديث فإن الحيوان هو الذي كان يسعى ليرتوى
من نفس المجرى الذي استقر الإنسان على شواطئه .

استثناس الحيوان :

هذا التحول في طبيعة حرفة الصيد ، أدى الى نشأة حرفة جديدة تتعلق بالحيوان ، هي حرفة استثناس الحيوان ، ومعنى ذلك أن يعيش الحيوان ويتكاثر تحت سلطان الانسان . وينبغي أن تفوق هنا بين أن يألف الانسان الحيوان ، وبين ان يستأنسه . فالألفة مرحلة أولى ، وهى ان الحيوان تعود على شكل الانسان فأصبح يألفه ولا ينفرد منه ، ثم بمرور الزمن وجد نوع من المودة بين الفريقين بفضل المعاملة اللطيفة ، التى أصبح الانسان يعامل بها هذا الحيوان .

ويدخل فى هذه المجموعة الكلب ، ويقال ان الكلب هو أول حيوان ألفت الانسان . اما الاستثناس الكامل فشمل عدة حيوانات أخرى هى الحيوانات التى تمده بالغذاء . فوجد الانسان بعد التحول الى حياة الاستقرار أن من صالحه ان يربى هذه الحيوانات وأن تكون هذه الحيوانات فى حوزته ، ولم يصل الى هذه المرحلة الا بعد تفكير طويل ، وبعد دراسة طويلة لطباع الحيوان ، ومن أجل هذا لا ينبغي أن تقلل من قيمة هذا الكشف الجديد الذى وصل اليه الانسان . فادراكه انه من الممكن أن يعيش هذا الحيوان معه فى مسكن واحد ، ثم الجهود التى بذلها فى هذا السبيل ، كل هذا يعتبر مرحلة متقدمة جدا من مراحل حياة الانسان ، ويقال ان استثناس الحيوان كان المرحلة التالية مباشرة للاستقرار ، أى أنها مرحلة سبقت الزراعة ، وبمعنى آخر أن حرفة الرعى كانت حرفة سابقة لحرفة الزراعة ، وان الانسان وصل الى اختراع الرعى قبل ان يصل الى اختراع الزراعة .

وقد كشفت عمليات الحفر والتنقيب في السودان عن وجود بقايا مساكن في (الشعيناب) غربى شاطيء النيل ، وعلى بعد ٢٠ ميلا من أمدرمان كما وجدت كذلك هياكل بعض الحيوانات كالماغز والضأن متروكة قرب هذه المساكن . وفي مصر كشفت البحث عن محلات في دير تاسا بالقرب من البدارى بمديرية أسيوط ، وفي مرمدة بنى سلامة في غرب الدلتا ، ثم في العمرى في شرق الدلتا ، ثم في الفيوم على شواطىء بحيرة قارون وفي كل هذه المحلات في مصر والسودان نجد الاستقرار واضحاً ، ويستدل عادة عن أماكن الاستقرار اما من القرية ، أو من مساكن الأحياء أو من الجبانة أى مساكن الموتى (شكل ٦) وكذلك كشف التنقيب عن وجود آثار في تل حسونة على بعد بضعة أميال من مدينة الموصل الحالية ، وفي تل حلف بالقرب من منبع نهر الخابور أحد روافد نهر الفرات وفي تل العبيد في المنطقة التى يصب فيها نهر الدجلة والفرات عند الخليج الفارسى .

اختراع الزراعة :

وفي الوقت الذى كان الانسان يربى الحيوان ، كان يفكر فى وسيلة لغرس الحبوب حتى تعود ثمرها ناضجا ، وليس لدينا دليل قاطع يبين لنا كيف عرف الانسان غرس البذور ، ولكن يبدو أن الانسان كان يتساقط منه بعض الحبوب فى الطريق ، وعندما تنزل الامطار تنمو ثم تنضج فيلاحظها الانسان .

ولما كان من عادة الانسان فى تلك العصور أن يدفن بعض الحبوب مع الموتى كما كان يدفن آلاتهم ، فقد تنمو بعض الحبوب فى أطراف المقبرة ، أو فوقها عندما تنزل الامطار ، فيلاحظها الانسان .

البحر المتوسط

مرسة سلاية

هليوبوليس

سقارة

العمارة

مخمس

عادنة

ابو صير

ديرتاسا

البداري

ابيدوس

وندرة

العمرة

نفاه

هيريكيوموليس

البحر الابيض المتوسط

شكل ٦

عصر ما قبل التاريخ
في مصر

فظروف الاستقرار اذا مكنته من تتبع أدوار حياة النبات عاما بعدعام،
ثم صعوبة استغلال هذا النبات بعد الاستقرار . دفعته الى ان يخترع
الزراعة وان يجمع الحبوب البرية ويبذرهما بالقرب من مسكنه ، لكي
ينتج مجموعة من النباتات متحدة من نوعها ، وهذه هي الزراعة .

ولا يعلم أحد على التحقيق كيف وأين بدأت الزراعة ، وان كنا على
يقين بأن بعض الناس في العصر الحجري الحديث ، كانوا يستنبتون الشعير
والقمح والدخن ، وكذلك كانوا يعرفون الكتان الذي يصنع منه التيل .
لكن لا بد أن الانسان قد اعترضته صعوبات كثيرة قبل أن يصل الى
اختراع الزراعة ، كالفيلضانات التي لا تحدث الا مرة كل سنة ، وكوجود
الأحراش والحشائش والمستنقعات ، اذن لا بد من عمل شاق جدا لتنظيف
الأراضي من الحشائش ، وحفر الترع وشق القنوات واقامة التروس
لاستثمار مياه الأنهار .

والمساحات التي وجدت كمساكن في الساحات التي كان يغمرها زمن
الفيضان دجلة والفرات والنيل ، كلها تشير الى ان أهلها كانوا في حالة
طيبة من الثراء لم يسبق أن عرفها قبل ذلك التاريخ ، وتعزى أسباب هذا
الغنى الى الري .

اذن مكنت الزراعة أولئك الناس من ان يحلوا مشكلة ايجاد ما يكفيهم
من طعام ، بعد ان تكونت الصحراء من حولهم .

نمو مساحة القرية :

ثم أخيرا بعد ان استقر الانسان في مسكن ، وعرف استئناس الحيوان

وعرف الزراعة ، كان طبيعيا أن تنمو مساحة القرية ، وأن توجد بعض المساكن لكن ليست بقرب مجرى النهر مباشرة ، ثم في وديان الأنهار ذات السهول الفيضية ، أى في أبعد مكان يصل اليه ماء النهر وقت الفيضان ، أو بتعبير آخر يجب أن تكون القرى بعيدة عن منال الفيضان .

ولما كانت حاجة الناس الى الماء مستمرة . فلا بد اذن من التفكير في وسيلة لخرن الماء ، ووجد أنه لا بد من عمل نوع من الآنية يحمل فيها الماء من النهر ، ونستطيع ان نتصور ان الأواني الأولى كانت من جلود الحيوان (القرية) ، ولكنه وجد أن هذه القرب ، مع انها صالحة لحمل الماء الا انها ليست صالحة لخرنه ، فوصل الى طريقة أخرى لحمل الماء هي صناعة الفخار
صناعة الفخار : وصل اليها أيضا بعد تفكير ، وربما تيسر صنع الفخار

الأول بتكليس الصلصال على ظاهر سلة من السلال التي كان قد تعلم صنعها من قبل ، ثم تعلم الناس كيف يشكلون الأواني بأيديهم فصنعوا الجرار والطاسات والصحاف ، ولم يكن صنع الفخار الجيد بالأمر الهين ، فقد كان ذلك يقتضى العثور على الصلصال الملائم وتخليصه من عيدان الخشب والحصى ، ثم يمزج بمادة أخشن منه وأغلظ مثل الرمل ، فاذا صنعت الأنية وضعت في النار حتى تتصلب ، وكثيرا ما كانوا ينقشون على الفخار أشكالا أو يرسمون عليه صورا .

وفي حوالى سنة ٣٥٠٠ ق م اخترع الخزافون العجلة لصنع الفخار في سومر في جنوب العراق . وعرفت مصر بعد ذلك وطبيعى أن العمل بواسطة العجلة قد سهل وحسن مستوى الانتاج فصار العمل أسرع والانتاج أغزر ، وعن بلاد الشرق الأدنى عم استعمال هذه العجلة فى كل بلاد العالم القديم بعد ادخال اصلاحات بسيطة عليها .

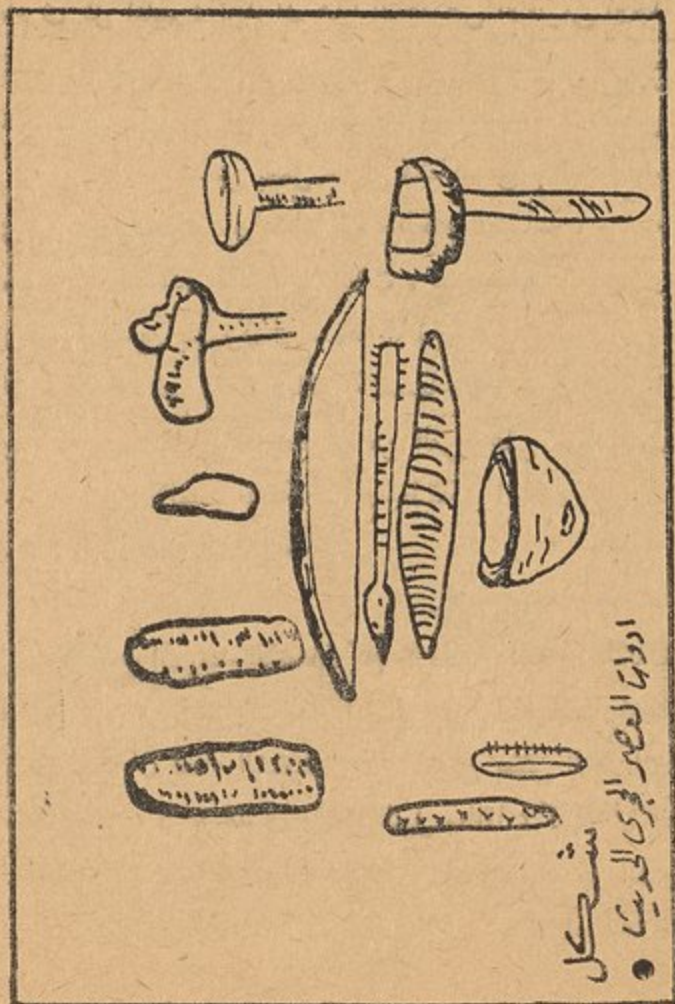
وبهذا وجدت المظاهر الأربعة الرئيسية للعصر الحجري الحديث وهى
تشاة القرى (الاستقرار) ، واستئناس الحيوان ، واستئناس النبات (الزراعة) ، وصناعة الآلات الفخارية .

ولما تدرج الانسان في الرقى خلال العصر الحجري الحديث ، أصبحت هذه المظاهر الأربعة ، التي ذكرناها ، مألوفة له ، فأخذ في الوصول الى مظاهر حياة أخرى أهمها التخصص المهني ثم التجارة ، وبعدهما كان لا بد أن تقوم العلاقات غير السلمية ، فتكثر الحروب ، وينشأ الاستعمار .

لم يعد انسان هذا العهد يعتمد على ما تجود عليه به الطبيعة ، فلم يعد ملتقاً وجماعاً وصيداً ، بل احترف الرعى ثم الزراعة . ونستطيع أن نلاحظ ما طرأ على اقتصاديات الانسان ، وهو يمارس هاتين الحرفتين من أشكال الآلات الحجرية ، اذ تغيرت المادة الخام ، ولم يعد استخدام الآلات مقصوراً على الصوان والحجر الرملي ، بل أصبحت الأحجار النارية كالجرانيت والنايس ، تستخدم في صنع الآلات ، وذلك لأن النارية كالجرانيت والنايس ، تستخدم في صنع الآلات ، وذلك لأن التخصص الاقليمي قد وجد ، ولا بد أن تعتمد كل جماعة على استخدام ما في بيئتها .

ولم تنوع اشكال الآلات والأدوات الحجرية نتيجة لاختلاف المادة الخام فحسب بل نتيجة أيضاً للاغراض الجديدة ، التي أصبحت تؤديها فمعرفة الانسان للزراعة تقتضى أن تتوفر لديه آلة لحرث الأرض ، واعدادها للزراعة ، وآلة لحصد الزرع ، ثم هون أو رحى لطحن القمح ، هذا فضلاً عما حدث بخصوص تهذيب أسنة الرماح والسهام حتى أصبحت مصنوعة بدقة ، وبجوار الآلات الحجرية ، أمدهم العظم بنصال لتسليح الخطاطيف (السنارات) أو عمل الابر لحياكة الجلود .

وقد عثر في مخلفات بعض مساكن هذا العصر على أمشاط من العاج لترجيل الشعر وكذلك وجدت عقود من الحجارة اللزينة ، كما عثر في الشعيناب على بعض مخلفات يرجع تاريخها الى هذا العصر ، وبفحصها دلت على أن سكان هذا العصر في السودان كانوا يدهنون أجسادهم بالمغز (شكل ٧)



ادوات العصر الحجري الحديث
 شكل

التجارة :

بعد هذا التغيير في صناعة الآلات نتيجة للتخصص الاقليمي ، وتوزيع المادة الخام في كل اقليم ، نجد أن هذا التخصص الاقليمي أوجد حرفة رابعة في هذا العصر هي التجارة والتجارة نتيجة حتمية لتوزيع المادة الخام وما يتبع توزيعها من تخصص مهني ، والمقصود بالتخصص المهني أن يقوم كل جماعة من الناس بعمل خاص فتتخصص جماعة في استغلال المناجم أى بقطع الحجارة ، واعداد المادة الخام للصناعة ، وتقوم جماعة أخرى بتحويل هذه المادة الخام الى آلات ، في منطقة المحاجر والمناجم نفسها ، وهؤلاء الذين يقيسون في منطقة المناجم ، محتاجون الى الطعام والماء ، فلا بد أن يعد لهم ذلك في القرية نفسها ، ولا بد ان يهوتوا القرية بالآلات والمعدات في مقابل أن يحصلوا من القرية على المواد الغذائية أى أنه وجد في ذلك العصر طبقة صناع وطبقة زراع ، ولا بد ان توجد بينهم طبقة ثالثة هي طبقة التجار .

وليس في الامكان ان يجد الانسان كل ما يحتاج اليه في المكان الذي يعيش فيه ، بل لابد من استيراد بعض الاشياء في أماكن استقرارها خارج دائرته ، مثال ذلك ان نساء الشعيناب كن يلبسن بعض الحلى المصنوعة من نوع من الحجر ، لا يوجد في وادى النيل مطلقا ، كذلك في مصر في نفس هذا العصر، كانت تصنع أدوات الزينة من نوع من الحجر الذى ربما أحضر من جبال تبستى *idestl* من وسط الصحراء الغربية .

معنى ذلك أن كل الأقاليم ليست محظوظة في توزيع المادة الخام، فبعض الأقاليم عندها فائض عن حاجتها ، وأقاليم أخرى فقيرة ، وبحكم ما فطر

عليه الانسالان من حرص وطمع ، حاولت كل جماعة ان تعتبر كل منطقة من المناطق التي تعيش فيها ، أو توجد بقرها ميدان نشاطها هذا الميدان - الذي سيكون ما يعرف بالدول ، ذات الحدود السياسية فيما بعد - موجود منذ القدم ، ولا زال موجودا عند الجماعات البدئية حتى الوقت الحاضر ، فالجماعة المحرومة من المادة الخام - بسبب عدم عدالة الطبيعة في توزيعها - تحاول منذ القدم أن تحصل عليها عن طريق القوة ومن هذا وجد ما نسميه بالاستعمار منذ اللحظات الأولى التي استقر فيها الانسان . ولكن لاشك أن التجارة قد هيأت للناس كثيرا مما كانوا يحتاجونه لتيسير سبل معيشتهم ، فجعلت من حياتهم حياة متنوعة سعيدة تبشر بمستقبل زاهر .

و جدير بالملاحظة أن اختراعات واكتشافات هذا العصر لم تعرف في جميع أنحاء العالم في وقت واحد . فقد تمت هذه الاكتشافات أولا في الشرق الأدنى ، ولم تعرف في أوروبا بعد ذلك بزمن طويل ، وفي بعض الأماكن لم تعرف هذه الاكتشافات الى الآن . فبعض الباشمن لا يعرفون الزراعة وكثير من أهالي أواسط استراليا وتسمانيا ، مازالوا يعيشون على نفس الطريقة التي كانت تسود العصر الحجري القديم .

عصر المعادن :

وفي منطقة الشرق الأدنى بدأ العصر الحجري الحديث قبل سبعة آلاف سنة ، وفي نفس المكان دخل الناس في تطورهم التاريخي الثالث ، قبل خمسة آلاف أو ستة آلاف سنة ، وذلك عندما عرف الناس استعمال المعادن . وأول معدن استعمله الانسان في صنع آلاته هو النحاس ، وهذا المعدن يتواجد بكثرة في جهات متعددة في الشرق الأدنى مثل شبه جزيرة سينا ، وعمان ، وقرب ايران ، وفي بعض الأحيان يوجد النحاس منفصلا

عن الصخور فوق سطح الأرض ، وعلى أى حال فإن النحاس اسهل المعادن التى يسكن استخراجها من الأحجار التى تحمل مادة النحاس ، وذلك بطريق صهره بالنار ، ولسهولة الحصول عليه كان النحاس أول معدن استخدمه الانسان فى أغراضه .

وأول أدوات نحاسية اكتشفت هى عبارة عن دبائيس نحاسية ، وجدت بين بعض الآثار فى نقادة (بمصر العليا) وكذلك اكتشفت حبات عقود نحاسية فى حسونة التى تقع عند ملتقى نهري دجلة والفرات فى شمال العراق ، وقد وصنت هذه الأدوات قبل حوالي ٦٥٠٠٠ سنة ، وبمثل ذلك سم استعمال النحاس فى وادي النيل ، ودجلة والفرات .

أما الطريقة الأولى لصنع الآلات النحاسية فكانت بدائية جدا حيث كانوا يحضرون قطعة من النحاس ، ويضربونها بشاكوش من الحجر حتى يتحصلوا على الشكل المراد ، ومثل هذه الطريقة تتطلب مجهودا عظيما ، ولا يمكن صنع غير الآلات البسيطة السهلة التركيب مثل الدبائيس والسكاكين .

أما الطريقة الثانية فكانت بصهر النحاس ثم صبه فى قوالب مصنوعة من الطين أو الرمل ، وهذه الطريقة سهلة . وتمكنهم من عمل كل الأدوات التى يحتاجون إليها .

وكانت معرفة النحاس فتحا جديدا فى عالم الصناعة فى هذا الوقت ، فالأدوات أصبح من الممكن صنعها من النحاس بصورة جيدة متقنة . وأصبحت هذه الأدوات أكثر صلابة ، وأقل عرضة للكسر من الأدوات الحجرية ، كما استطاع الانسان بفضل الآلات النحاسية ، أن يصنع أثاثات

خشبية جميلة لم تكن معروفة من قبل ، أى أن الانسان اصبح من الممكن ان يصنع أدوات كثيرة مختلفة لأى عمل يريد القيام به ، ذلك لانه من الممكن من الآلة النحاسية اذا فقدت حدتها .

وتبين للانسان بعد مدة أنه اذا خلط النحاس بالقصدير حصل على معدن أشد من النحاس صلابة وهو البرنز ، ثم أمكنه بعد ذلك أن يستعمل الحديد وذلك فى العصر الرابع من العصور السابقة للتاريخ .

ويجب ألا تفهم من هذا التقسيم أن الأمم كلها مرت فى تلك العصور الأربعة الواحد بعد الآخر ، فبعضها بقى يستعمل الآلات من الحجر دهورا طويلا جدا ، وبعضها كان سريع الخطى ، عرف الكتابة وقت أن عرف المعادن ، وبعضها انتقل من استعمال الحجر الى استعمال الحديد دفعة واحدة

الفصل الثاني

السودان في عهد الدولة القديمة

٣٢٠٠ - ٢١٦٠ ق م

كان تاريخ السودان منذ آلاف السنين قبل الميلاد مرتبطا تماما الارتباط بتاريخ مصر ، اذ كان الاتصال وثيقا بين السودان وبين مصر، بلد المدينة الأولى . وكان هذا الاتصال في بدئه تجاريا ثم مالبت أن أصبح شمالي السودان - مركز حلقا وشمالي مركز دقلا - جزءا من الدولة المصرية في عهد الدولة الوسطى الفرعونية ، وطال الأمد على بقاء هذا الجزء تحت النفوذ المصري ، بل ان ذلك النفوذ امتد حتى الشلال الرابع . ونتيجة لهذا الاتصال طوال هذه الحقبة ، تسربت الى تلك الجهات عوامل الحضارة المصرية القديمة ، التي كانت قد قطعت شوطا كبيرا في التقدم والرقى في جميع مرافق الحياة ، في الحكومة وفي الدين وفي العمارة والفنون . واستمر الجزء الشمالي من بلاد السودان ينهل من حضارة المصريين حتى تمصر تماما في كل شيء ، في حكومته وفي عباداته وفي عمارته وفي فنونه .

لذلك كله لا يمكننا أن ندرس تاريخ السودان في تلك العصور دراسة واقية ، الا من خلال دراستنا لتاريخ مصر . ونفترض هنا أن القارئ يعرف شيئا عن هذا التاريخ ونكتفي بإشارات طفيفة كلما دعت الحاجة الى ذلك ، حتى لا نتعد عن هدفنا المنشود .

فباختراع الكتابة في مصر حوالي سنة ٣٥٠٠ ق م بدأ العصر التاريخي الذي يتميز بأسانيده ونصوصه المكتوبة ، التي ساعدت كثيرا على وضوح معالمه التاريخية ، كما تميز أيضا بما استقام للمصريين فيه من حضارة متميزة ذات طابع خاص . واصطلاح المؤرخون على تقسيم تاريخ مصر القديم الى أسرات ، أطلق على كل عدد منها اسم يميزها .
فالأسرتان الأولى والثانية تؤلفان بداية عهد الدولة القديمة ، ويسمى عهدها عادة « بالعهد الطيني » (١) والأسرات من الثالثة الى نهاية السادسة « بعهد » بناء الأهرام (٢) .

السودان في العهد الطيني

دلت البحوث العلمية ، والكشوف الأثرية الحديثة دلالة واضحة على أن بلاد النوبة كانت منذ عهد ما قبل التاريخ أمة واحدة هي ومصر من حيث السلالة والحياة الاجتماعية والمعتقدات الدينية ، فقد أثبتت بحوث علماء علم الانسان ، الذين فحصوا عن الجماعم البشرية في كلا القطرين ، أن كلا من المصري والسوداني . ينسب الى سلالة واحدة هي السلالة الحامية وقد ظلت هذه السلالة تقيّة حتى عهد الأسرة ١٨ حوالي ١٥٨٠ ق م ، وذلك عندما أخذت السلالة الزنوجية الجنوبية تختلط بالسلالات الحامية في الشمال بعض الشيء . كما دلت أحدث الكشوف التي عملت عندما

- (١) نسبة الى مدينة طينة ، وكانت تقع على مقربة من ألبينا جنوب غربى جرجا .
- (٢) وهو يمتاز بكثرة ما اقيم به من أهرامات في جهات متعددة من وادى النيل .

أقيم خزان أسوان عام ١٩٠٢ ، وعندما بدأت التعليق الأولى حوالى عام ١٩٠٧ ، على ان الحياة فى كل من بلاد النوبة ومصر كانت موحدة فى عصور ما قبل التاريخ ، فقد وجد ان محتويات القبور وأشكالها فى كلا البلدين من حيث الأواني المنزلية والمآكل والملبس وعادات الدفن واحدة وليس هناك أية فروق قط ، كذلك كانت الحيوانات الأليفة والبرية المعروفة للسجلات النوبية القديمة تشبه كثيرا الحيوانات التى كانت فى مصر فى نفس العصر ، مما يدل على ان مصرى ما قبل التاريخ كانوا يحتلون وادى النيل من اقصى الشمال حتى الشلال الثانى على ما يظهر .

ويعتقد الأثرى برتتون ، أن كثيرا من المقابلة للأشياء التى ترجع الى عهد ما قبل الأسرات المبكر المستخرجة من حفائر البدارى (بمديرية أسيوط) ، (شكل ٦) وبخاصة الصوانى والمخارز المصنوعة من العظم ، وما أشبه ذلك ، قد وجدت فى بلاد النوبة . وأهم ما يلفت النظر بين هذه الأشياء ، أشكال الفخار المستعملة فى كل من المنطقتين (شكل ٨) فنجد أن الكاس ، التى كانت أكثر الأشياء شيوعا واستعمالا فى البدارى ، كانت توجد كذلك بكثرة فى بلاد النوبة ، حيث استمرت عدة قرون مستعملة فى أنحاء هذه البلاد .

وعندما كشفت جبانة (بهان) ، الواقعة على مسافة قريبة من شلال أسوان ، أى فى أقصى الحد الشمالى لبلاد النوبة ، دل ما وجد فيها من الأشياء على أنها تنتمى الى حضارة نقادة الأولى (١) فى مصر . ونخص بالذكر من بينها أواني أسطوانية وسطها مفرطح وذات قاعدة مصنوعة من حجر البازالت

(١) منطقة النوبة بجهة قنا يرجع تاريخها الى فترة ما قبل الأسرات أى حوالى ٤٠٠٠ -

(٢٢٠٠) لنظر الخريطة شكل (٦) .



اواني فخارية ذات قبة سوداء من البدارى



اواني فخارية مزينة برسوم من العصرة

أو البريشيا ، وأواني من الفخار الأملس لها حافة عريضة سوداء ، وأطباقا مدهونة باللون الأبيض . الخ

ولقد كشفت أعمال الحفر والتنقيب عن وجود الكثير من الأماكن في بلاد النوبة ، اشتهرت بآثارها التي ترجع الى عصر ما قبل التاريخ منها جبانات في « دكة » وتحتوى على أكثر من ست مئة مقبرة ، وتعد من أعظم مدافن النوبة في هذا العصر . وفي « السيادة » وغيرهما (شكل ١٠) وفي هذه الجبانات سالفة الذكر نجد أن القبر كان صغيرا ومسطوا ، وأن الجسم قد وضع فيه مضطجعا أو مقرفصا على الجانب الأيسر ، والرأس متجه نحو الجنوب وكان الجسم عادة يغطى بالحصير أو بجلد حيوان . أما الأثاث الذى وضع مع المتوفى فيحتوى على الفخار (صناعة مصرية) . نذكر منها القعاب الحمراء المصقولة ، التي يحيط بها شريط أسود ، والأطباق الصلبة ، ذات اللون الأحمر الداكن ، وهي التي يرسم عليها أشكال هندسية أو صور ، وقد جىء من مصر بأوان للكحل من الأردواز الاخضر . هذا ويدل وجود الأدوات المصرية في تلك المقابر النوبية ، كما يدل وجود المحاصيل النوبية في المقابر المصرية ، على التبادل التجارى بين البلدين . فالأبنوس الذى وجد في المقابر المصرية ، وهو ان كان في الأصل من شجرة هندية الا ان بعض الأثريين برهن على ان هذا النوع من الشجر ، كان ينمو في السودان ، وعلى ذلك كان يتجر فيه مع مصر .

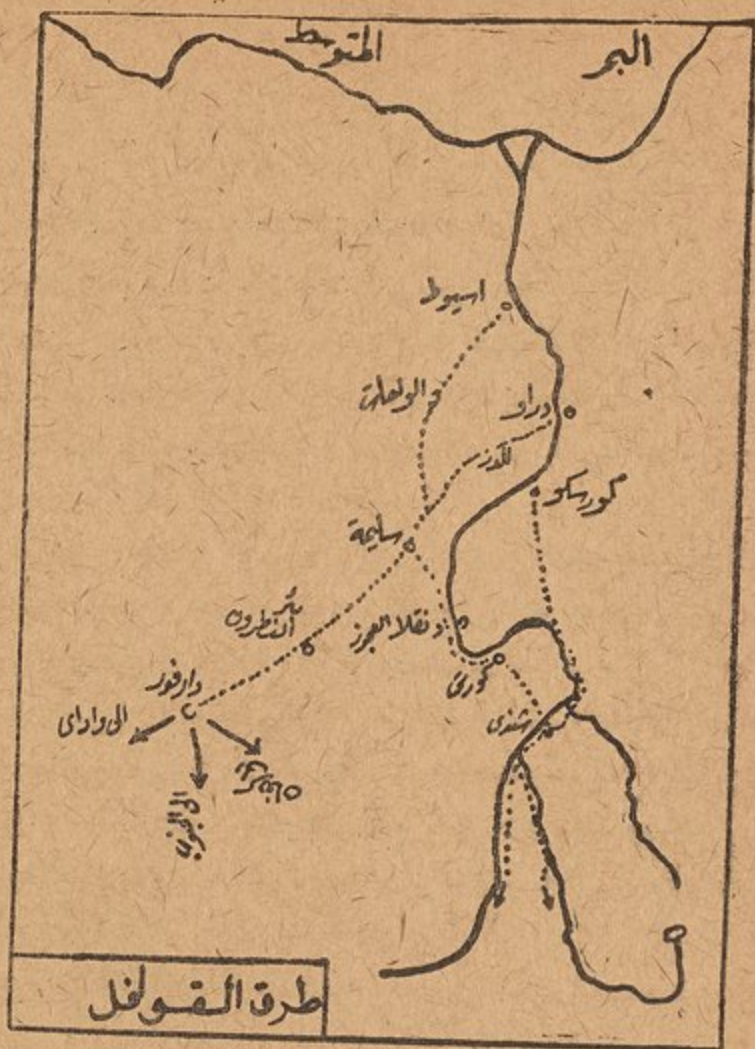
طرق التجارة :

وعلى الرغم من ان اقليم الصحراء في شمال السودان ، قد وقصعقبة كأداء في سبيل المواصلات ، الا أن الانسان تمكن من اجتيازه بالاتقال من

بئر الى بئر • وكان أسهل طريق لاجتياز الصحراء من أقدم العصور هو وادي النيل من شمال الخرطوم الى مصر •

وتدل النقوش التي تركها ملاحو السفن في عهد الدولة القديمة ، والدولة الوسطى الفرعونية • على استعمال هذا الطريق المائي حتى الشلال الثاني على الأقل • ومن المحتمل ان تكون هذه الطريقة معروفة ومستعملة منذ أقدم العصور ، وكانت الرحلة تستغرق ذهابا وإيابا حوالي سنة •

أما طرق الصحراء الشرقية ، التي ربما تكون قد استعملت في تلك الأزمنة القديمة ، فهي الطريق التي تخرج من عند النيل في « دراو » شمال أسوان ، وتمر في سلسلة آبار • وبعد مسير مدة تتراوح بين ١٦ — ٢٠ يوما : تصل الى النيل فوق بداية منحني دقلة العظيم • وفي الأزمان الحديثة تؤدي هذه الطرق الى شندي وسنار ، ومن شندي تخرج طرق أخرى الى سواكن أو الحبشة ، وتخترق الصحراء الى « مروى » و « كورتى » في مديرية دقلة ، ومن سنار كانت الطرق مفتوحة الى كردفان ودارفور وغرب افريقية • وأما طرق الصحراء الغربية فكانت الطريق من أسوان الى واحة سليمة فساو أو كرمة ، في نظر مصريي الدولة القديمة عملية أكثر من طريق (درب الأربعين) ، الذي يخرج من اسيوط الى سليمة الى دارفور والطريقة الأولى أفضل اذ كانت تسمح باستعمال النهر حتى أسوان ومع ذلك كانت تمر بهم على كل القبائل التي اشتهرت بالهب وفرض الضرائب • اما التجار الجنوبيون ، الذين كانوا يسعون الى مصر ويرغبون في تجنب تعرض الموظفين المصريين لأموالهم ، وقبائل واوات ، فكان طريق الأربعين أوفر لهم (شكل ٩)



شكل ٩

(٢) السودان في عهد بناء الأهرام

اتخذ ملوك العهد الطيني مدينة « أيدوس » عاصمة لهم في صعيد مصر ، وفي حوالي سنة ٢٨٠٠ ق.م تحول ملوك مصر نحو الشمال فنقلوا عاصمتهم الى « ممفيس » (شكل ٦) ، على الضفة الغربية من النيل ، وعلى بعد ٢٤ ميلا جنوبى (القاهرة) الحالية .
وامتاز عهد ملوك ممفيس (من الأسرة الثالثة الى آخر السادسة) ببناء الأهرامات التى كان القصد الأول من بنائها هو أن تكون مقابر حصينة لملوكهم ، ونظرا لان المصريين كانوا يقدسون ملوكهم ، اعتبرت الأهرامات أماكن مقدسة ، وبنيت بجوارها المعابد ليتمكن الناس من الصلاة والترحم على الميت .

ويدل بناء الأهرام فى هذا العصر على قوة الملوك الذين بنوها وشدة بأسهم وعلى حسن نظام الحكومة فى عهدهم . وليست عظمة البناء هى كل ، ما يستوقف النظر ، فقد استلزم صنع السرايب الخفية والمخادع انداخية وحساب الزوايا وتنسيق الاجزاء وتناسبها ولحم الأحجار علما كبيرا بقواعد البناء وهندسة العمارة . يدل كل ذلك على ان المصريين بلغوا فى ذلك شأوا عظيما ، وعلى أنهم استكملوا كل العناصر الحضارية قبل ميلاد المسيح بأربعة آلاف سنة .

ملوك ممفيس وعلاقتهم بالسودان :

كنا قد ذكرنا ان التجارة كانت قائمة على قدم وساق بين السودان ومصر منذ عصر ما قبل التاريخ ، ولما بدأ التاريخ فى مصر لم نجد فى عصر بناء الأهرام أى تأثير ثقافى بارز فى ثقافة السودان . فلم نجد فى مقابر القوم أى

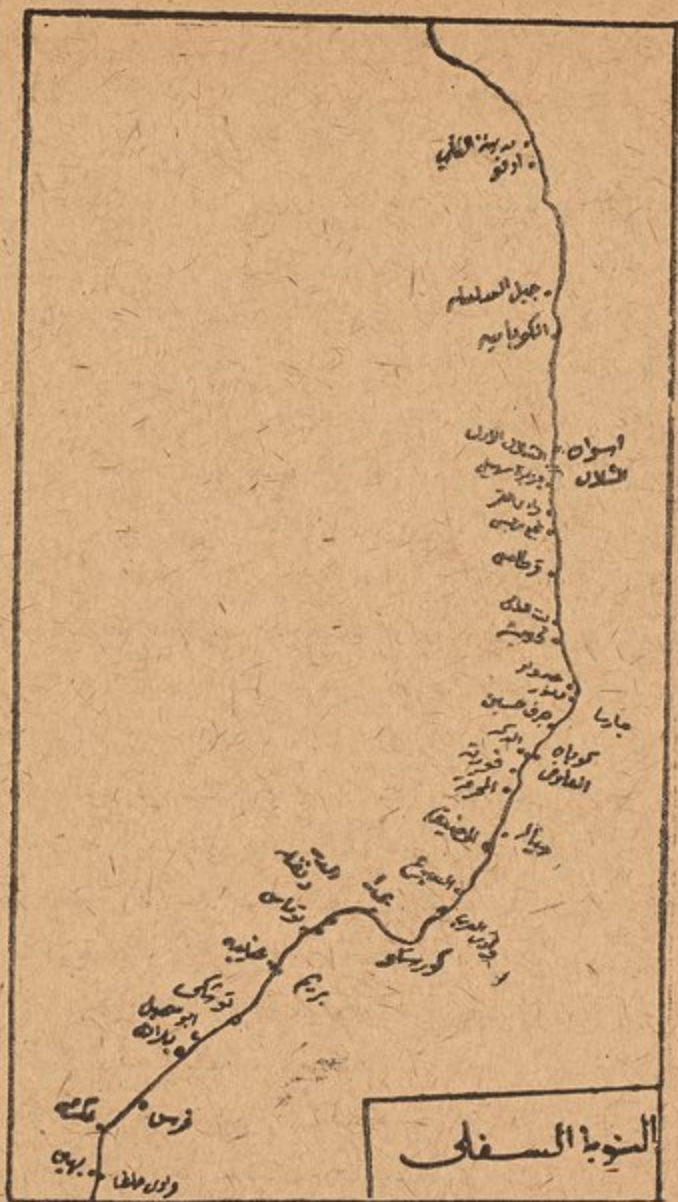
نوع من الكتابة ، لدرجة ان الأثريين ، يذكرون ان الحضارة النوبية لهذا العصر ، الست الا صور منحطة من الثقافة التي عرفت ، في العهد الطيني . وقد عثر على آثار هذه الثقافة (ثقافة عصر بناء الازهرام) في بلاد النوبة في جهات منفردة منها « جرف حسين » بالجبانة رقم ٧٧ وغيرها . (شكل ١٠) .
ويلاحظ ان مقابر هذا العصر كانت بيضة او مستطيلة الشكل ذات اركان مستديرة ، والجسم وضع فيها مضطجعا ومقرفضا على أحد جانبيه ، في اتجاهات غير منتظمة ، وغالبا ما نجد الجسم ملفوفا في جلد ماغز أو حصير .
أما الأثاث الذي كان موضوعا مع الجسم فكان في العادة يتألف من اوان من الفخار قليلة العدد ، وأهم انواعه : فخار سبيك مصقول واونه أحمر ، وفخار ذو شريط أسود (يشبه الفخار الذي ذكرناه في العصر الطيني غير أنه أكبر منه واقبح شكلا) . ولم يوجد في هذا العهد أدوات من الاحجار جرج جلالا ان جعلت هي قتمى عضة صك شخصه لى قه همى ك صك الحجر ، كذلك كان الخرز والأشياء المصنوعة من المحار نادرة الوجود . ولم يعثر من الآلات النحاسية ، الا على المخرز . أما الأدوات المصنوعة من العظم مثل أطراف السهام والابر ، ومقابض السكاكين والملاعق ، فكانت توجد بكثرة في مقابر هذه الثقافة .

ويبدو أن مصر في عهد زوسر من ملوك الأسرة الثالثة ، كان لها السيادة على الجزء الشمالى من النوبة . وقد جاء في نقوش « لوحة المجاعة » او « لوحة سهيل » أن فيضان النيل تظف سبع سنوات متتالية ، فانتشر القحط في البلاد ، وعمتها المجاعة ، فنصح (أمعبت) للملك زوسر بتقديم القرابين للاله « خنوم » اله « الفنتين » ، ، ذلك الاله الذى كان المصريون يعتقدون أنه المشرف على فيضان النيل . فأخذ النيل يرتفع بانتظام ، ولذلك وقف الملك على معبد « خنوم » جميع الاراضى الواقعة على ضفتى النيل ، بين

جزيرة سهيل وجزيرة ضرار . كما منح كهنة «خنوم» حق فرض ضريبة على صيد الأسماك والطيور ، وعلى العمل في المحاجر ، وعلى سائر المنتجات الواردة من بلاد النوبة عن طريق «الفتنين» . وعلى أى حال كانت قبائل النوبة السفلى تقر بسيادة مصر عليها ، وتبعث برجالها الى مصر ليجندوا في فرق الجيش .

أما أول حملة رسمية تاريخية على بلاد النوبة ، فكانت في عهد الملك «سنفرو» مؤسس الأسرة الرابعة . وقد جاء ذكرها على حجر «بلرمو» ، الذى أرجعه الأثريون الى حوالى سنة ٢٩٠٠ ق م ، حيث تمكنت الحملة من تخريب البلاد (١) ، واحضار سبعة آلاف أسير من الرجال والنساء ، ومائتى الف رأس من الماشية الصغيرة والكبيرة . ونعتقد أن هذه الحملة ، كانت الضربة القاضية على بقايا حضارة بلاد النوبة في العصر الطينى . ونتيجة لهذه الحملة أصبح من المستطاع أن يرسل المصريون بضاعتهم بدون عائق الى الجنوب ، بل تمكنوا من استغلال محاجر الديوريت الواقعة على بعد ٧٠ كم شمال غرب «توشكى» (شكل ١٠) وقد عثر في هذه المحاجر على أسماء ملوك مصريين كثيرين منهم : خوفو ، وساحورع ، وأسى . وتدل شواهد الأحوال على ان ملوك الاسرة الرابعة ، كانوا يقطعون تماثيلهم من حجر الديوريت من هذه الجهة . ولا نزاع فى أن استغلال هذه المحاجر الواقعة فى صحراء بلاد النوبة ، وجلبها الى «توشكى» ثم الى مصر يدل على ان أهالى بلاد النوبة لم يكونوا محاربين . ولا غرابة فى أن أهل النوبة الفقراء لم يكن لديهم القوة ليقفوا أمام المصريين الأقوياء ، ولذلك كان من صالحهم أن يعيشوا فى سلام ومهادنة مع مصر وأن يعملوا على تسمية العلاقات الودية بينهم وبين المصريين .

(١) ثبت ان البلاد التى غزاها سنفرو هى بلاد واوات (انظر شكل ١٠)



وهذا النشاط السلعي الذي كانت تسلكه مصر في بلاد النوبة السفلى ، تدل عليه النقوش التي عثر عليها في « توماس » (شكل ١٠) في عهد الملوك «سحورع» و«اسسى» و«بيبي الأول» . وهذا وقد نقش عدد كبير من الموظفين أسماءهم وألقابهم على صخور «توماس» ، وبعض هؤلاء الموظفين كانوا يعملون في عهد الأسرة السادسة «ومن المحتمل أنهم كانوا معروفين في «الفتين» وتلقى القاب هؤلاء الموظفين ضوءا على ما كان لهم من نشاط في بلاد النوبة . فوجد بعضهم كان يحمل كل منهما لقب « المشرف على الترجمة » . ولدينا اثنان من هؤلاء يحمل كل منهما لقب « المشرف على الجنود » . ومن المحتمل أن عملهما كان متصلا بالنشاط الحربي في الصحراء . وفي عهد الأسرة السادسة أسعفتنا النقوش الأثرية بعلومات ثمينة تكشف لنا النقاب عن صفحة جديدة من تاريخ العلاقات التجارية بين مصر وبلاد النوبة ، وذلك أنه في هذا العهد ، أخذ الموظفون الذين قاموا ببعوث تجارية مع الجنود ، يتحدثون عن رحلاتهم إلى الجنوب . ويوضحون علاقة بلاد النوبة بمصر . وتدل النقوش التي عثر عليها على أن حدود مصر في هذا العهد ، لم تتعد الشلال الأول . ويبرهن على ذلك نقشان هامان خلفهما الملك « مرزوع » في منطقة الشلال . والنقشان موحدان في كلماتهما وهى : «ملك الوجه القبلى والبحرى (مرزوع) محبوب (خنوم) رب الشلال ، السنة الثالثة ، الشهر الثانى من فصل الصيف ، اليوم الثامن والعشرون . فقد أتى الملك بنفسه وعاد ، وقد وقف على ظهر الجبل ، وقبل أمراء «وارث» و «واوات» الأرض بين يديه ، ومدحوه كثيرا (شكل ١١) .

وهذا النقش يدل صراحة على تفتيش للحدود الجنوبية ، التي أتى إليها من بعيد الأمراء الأجانب من مختلف أنحاء البلاد النوبية ليقدموا لجلالة الملك خضوعهم وولاءهم والانزاع في ان هذا النقش خاص بالحدود .

وقد أخذت تظهر الأهمية البالغة لمراقبة الحدود عند (الفتنين) منذ منتصف عهد الأسرة السادسة . وذلك عندما ظهرت أمامنا وظيفة «حارس باب الجنوب» في ألقاب أمير المقاطعة .

وكان الوزير «بيو» في منف في نهاية عهد الملك «بيبي الثانى» من ملوك الأسرة السادسة «يلقب» المشرف على الباب الجنوبي والمشرف على الباب الشمالى لمصر» ومن مدلول هذه الألقاب نعلم أن الوظيفة التى تتحدث عنها الآن كان لها مكانة عظيمة فى شمال البلاد ، كما كان لها خطرها فى الجنوب . والامراقبة الحدود الجنوبية ، كانت تلعب دورا هاما فى سياسة البلاد ، كما سيتضح ذلك جليا عند التحدث عن الحدود المصرية الجنوبية فى عهد الدولة الوسطى .

وتدل الأحوال على أن خط الحدود ، كان الوافد على مصر يراقب عنده ، وكذلك يراقب ما يدخل من سلع الى بلاد النوبة . كما كان يعد المكان الرئيسى للتجارة الذاهبة الى الجنوب . أما الاقليم الذى خلفه فكان يعتبر مسرحا للتجارة ومن المحتمل أن الافراد الذين نقشوا أسماءهم على الصخور فى هذه الجهة ، قد لعبوا دورا رئيسيا فى سياسة مصر الجنوبية فى هذا الوقت والسواد الأعظم من كبار رجال القوم بحملات الى بلاد السودان كايوا من مواطنى (ألفنتين) هذه . وقد كشف الباحثون عن أسماء عدد كبير من هؤلاء الموظفين وسنقصر الكلام هنا على أهمهم :

١ — حرخوف : وقد عاش فى عهد كل من الملك مرزوع وبيبي الثانى ،

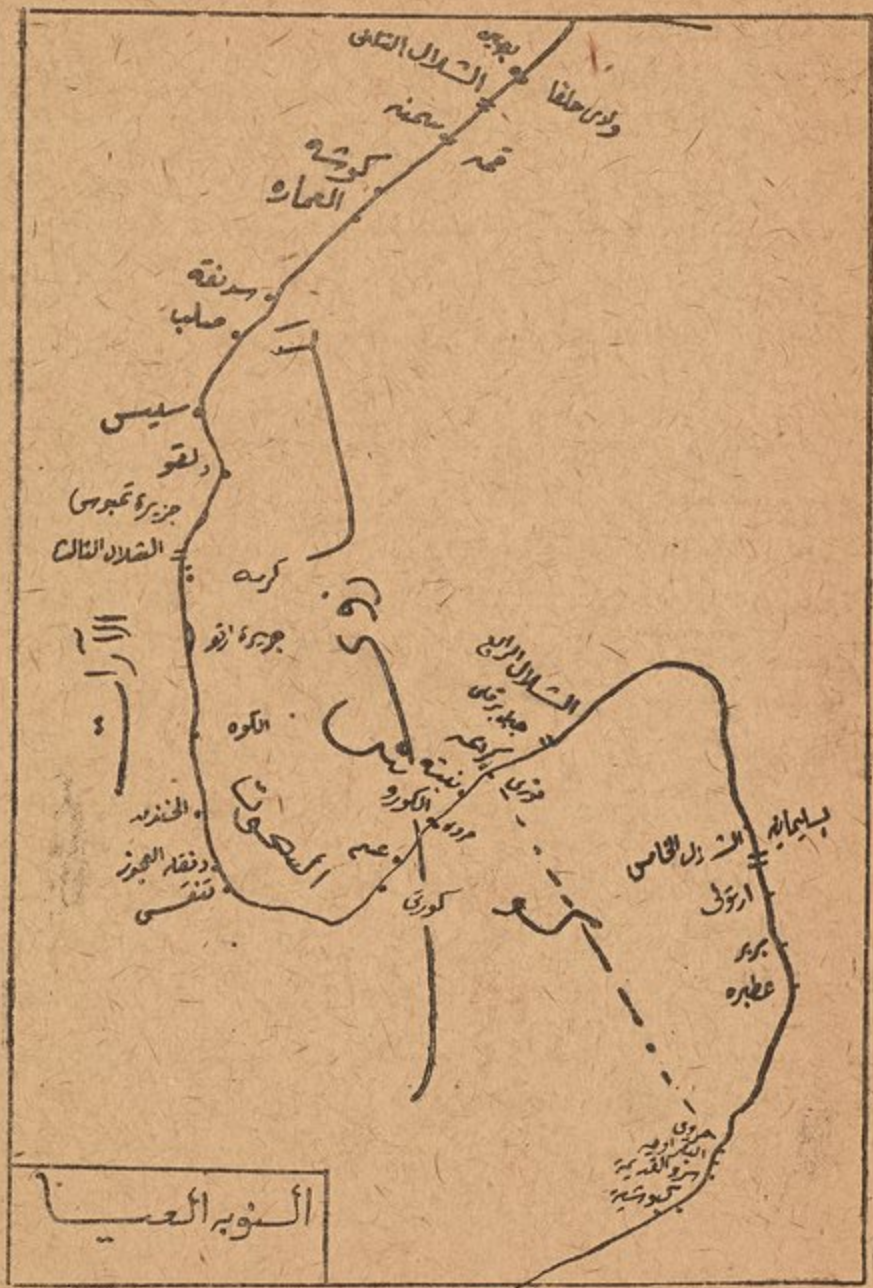
وقبره فى ألفتين . وقد قام هذا الأمير بثلاث حملات فى الجنوب ، فقام بالأولى والثانية بأمر من الملك مرزوع ، وقام بالثالثة بأمر من الملك بيبي الثانى . وهذه الحملات ان دلت على شىء فمن الممكن ان يستنتج منها أنه قد

حدث بعض التغيير في العلاقات الودية التي كانت سائدة في عهد الملك مرزوع، ففي الحملة الأولى قام حرخوف مع والده الى بلاد «يام» لارتياح الطريق الموصلة اليها، وقد استغرقت الرحلة سبعة شهور. وقد أحضر معه عند عودته كل أنواع المحاصيل، ولم يذكر عن العلاقة بين مصر وبلاد النوبة أية كلمة. وفي الرحلة الثانية ذهب بمفرده عن طريق ألفتين الى أرثت وماخر وترس. وهلوح لنا أن الغرض من هذه الرحلة كان كشف مجاهل هذه الجهات. (شكل ١١) .

وفي الرحلة الثالثة — وهي أهمها — فقد تحاشى حرخوف المرور في شمال بلاد النوبة، بل سار عن طريق الواحات كركر ودقل. وفي طريق عودته تقابل مع أمير أرثت وواوات، وقد تصافحا معا. ٢ — بيبي نخت. وهو موظف كبير في عهد الملك قد أرسله في حملة

عدائية الى بلاد النوبة لم نسمح من قبل بشلها في النقوش التي قبل الملك « بيبي نخت » ومن المحتمل أن ذلك يرجع الى ظهور مقاومة مسلحة من جانب النوبيين للمصريين، الذين أخذوا يستهينون بالأهالي بعد أن اتضح لهم نجاح حملات حرخوف، وعودته بكثير من المحاصيل المحلية المرغوب فيها كثيرا في مصر.

٣ — أونى. وهو أحد كبار الموظفين الذين عاصروا ملوكا كثيرين. وقد عثر على قبره في العرابة المدفونة. وقد أرسله الملك مريرع الى محاجر « أبهات » في بلاد النوبة ليحضر تابوتا مع غطاء، بالإضافة الى هرم صغيرة ثمين وفاخر، لأجل هرم مرزوع. كما أرسله نفس الملك لتعميق خمس قنوات في الجنوب، ولصنع ثلاث سفن واسعة وخمس سفن قتل من سنط بلاد واوات. في حين أن زعماء بلاد أرثت، واوات، يام، المزراوى



يوردون الخشب لهذا الغرض ويقول هو عن نفسه : « وقد انجزت كل ذلك في سنة واحدة ، وأنزلت السفن في الماء محملة بالجرانيت بكثرة لأجل هرم مرزوع » (شكل ١١)

ولانزاع في أن وجود هؤلاء العظماء في الفنتين قد أكسبها ثروة طائلة ، واضفى عليها بهاء وروقا وعظمة حافظت عليها في كل عصور التاريخ . ولا تزال من أجل ذلك حتى يومنا مهبط الزوار من كل اقطار العالم ، لما فيها من آثار وجو ممتع في أثناء الشتاء .

على ان النشاط الذي ظهر في بلاد النوبة بصفة جدية ، وكذلك ارسال الحملات التأديبية لم يستمر طويلا ، وذلك لأن الوهن والضعف وسوء الحكم في مصر كان قد أخذ يتفشى في داخلية البلاد التي مزقتها الحكم الاقطاعي ، الذي تجلى بابشع مظاهره في أواخر عهد الأسرة السادسة مما أدى إلى القضاء على كل نشاط سياسي خارج البلاد وأصبحت العلاقات بعد ذلك شبه معدومة .

المعاملات التجارية بين مصر والنوبة في هذا العهد :

الظاهر أن المعاملات بين مصر وبلاد النوبة قد ظهرت عند ما كانت العلاقات ودية بين البلدين ، وكان قوامها المنفعة المتبادلة . فكان المصري يدفع للمواطن النوبي أجره على الأعمال التي يؤديها له كما كان يشتري منه البضائع الغفل . وعندما ساءت العلاقة بين البلدين ، كان لزاما على النوبي أن يدفع جزية تدعى (تنجو) لمرور تجارته عند الحدود .

وكانت المواد التي تسترعى مصري هذا العهد في تلك البلاد ، المواد التي لا توجد في مصر ، أو التي كانت توجد بقله بحيث لا تفي بحاجة البلاد . وقد عدد لنا حرخوف عند التحدث عن رحلته الثالثة في مجاهل بلاد النوبة المحاصيل

التي أحضرها فيقول: « وعدت الى مصر مع ٣٤٠ حمار محملة بالبخور والأبنوس وزيت (حنكو) وزيت (ثاث) وجلود الفهود وسن القيل وكل محاصيل جميلة » . ومن المحتمل أن الأبنوس والعاج كانا يجلبان من بلاد النوبة في العهد الطيني الى مصر . ومن المحتمل كذلك أن جلد القيل كان يجاب من بلاد النوبة الى مصر منذ ذلك العهد المبكر ، وإن كان لم يظهر استيراده بصورة محققة الا في تلك الفترة .

كذلك استوردت مصر بعض الأحجار من بلاد النوبة ، وهذه الأحجار وبخاصة الديوريت كانت مرغوبا فيها في عهد الأسرتين الثالثة والرابعة . وكانت المنطقة المشهورة في شمال غربى توشكى مركزا لانتاج هذا النوع من الأحجار .

كذلك استوردت مصر بعض أنواع الخشب من النوبة ، وقد سبق أن عرفنا أن الملك مررع عندما أرسل الأمير (أونى) لحفر القنوات الخمس كلفه ببناء خمس سفن نقل مصنوعة من السنط المجلوب من « واوات » ومن هذا نرى أن بلاد النوبة كان بها خشب لبناء السفن .

وهذه الأشياء لم تكن وفيرة في وادى النيل وحده ، بل كانت في وديان الصحراء نفسها ، ولا أدل على ذلك من إن وديان الصحراء كانت عامرة بالأخشاب حتى القرن الماضى ، كما جاء في وصف الرحالة بورخارت (١) للصحراء الغربية ، اذ يقول مثلا في وصف وادى « أم جات » الواقع بالقرب من وادى العلاقى : « لم يصادفنا حتى الآن واد مررنا به ، فيه أشجار السنط الكثيفة بهذه الدرجة التي وجدناها في هذا الوادى » . وعلى ذلك فانه عندما يفكر الانسان في أن الوديان كانت ذات أشجار

ياسقة يانعة ، فانه ليس من المستحيل أنه كانت توجد في الصحراء الواقعة
غربى بلاد النوبة ، أو في شمال السودان فيلة ترتع في الأدغال التى فيها .
وكان خشب بلاد النوبة من السنط ولذلك لم يقم بالدور الذى قام به
خشب لبنان فى مصر .

ومن الغريب أن الذهب كان فيما بعد ، يعد أهم مادة تستورد من بلاد
النوبة ، لم يأت ذكره فى نقوش الدولة القديمة ، وبالتالى أفاد ازدهار
التجارة أهالى السودان ، فاستفادت القبائل الساكنة فى شمال السودان
خاصة ، فبواسطة التجارة استطاعوا أن يتصلوا بالحضارة المصرية
القديمة اتصالا وثيقا .

الفصل الثالث

السودان في عهد الدولة الوسطى

٢١٦٠ - ١٥٨٠ ق م

حالة بلاد النوبة منذ نهاية الأسرة السادسة الفرعونية حتى قيام الدولة الوسطى

أخذت مصر في الضعف في أواخر عهد الملك ميسو الثاني آخر الأسرة السادسة بسبب انتشار نظام الاقطاع وبسبب ازدياد نفوذ الجند المترزة ، وقد تخرجت العلاقة بين مصر وبلاد النوبة لدرجة عظيمة في هذا العهد ، ولاحظنا هذا التخرج منذ حملات حرخوف ويبيس نخت .

أما بخصوص بلاد النوبة نفسها فقد هاجرت إليها جماعات من جنس زنجي ، وذلك في نهاية عهد الأسرة السادسة المصرية ، وهؤلاء القوم كانوا في الأصل رعاة ماشية يشبهون قبيلة البقارة الحالية في كردفان ، ولا يمكننا أن نحكم على وجه التأكيد من أين جاء هؤلاء الحكام الجدد ، فبعض الاثريين يرجع ان موطنهم الأصلي في الجنوب الشرقي من البقعة التي ينبع منها النيل الأزرق والعبطرة ، وبعضهم يرى أن موطنهم الأصلي من الجنوب الغربي من كردفان . ولا يزال الغموض يحيط بهذا الجنس وأصله . وليس لدينا أي معلومات كتابية تسيطر اللثام عنه .

والمهم أن هؤلاء القوم المهاجرين ، بمجرد اختلاطهم بسكان النوبة الأصليين كونوا لأنفسهم ثقافة جديدة ، امتصت جذورها الكثير من الثقافة النوبية القديمة وبخاصة ، صناعة الفخار ، ولكنها على وجه عام كانت ثقافة

قائمة بذاتها ، وقد احتلت لنفسها مكانة عالية في الحياة القومية ، واذما قورنت بثقافة الدولة الوسطى المصرية ، عدت ساذجة بالنسبة اليها ويمكن أن تعد بمثابة الثقافة النحاسية الحجرية المتأخرة . ولم تأخذ من المنتجات الثقافية الأجنبية الا الشيء الضئيل جدا ، وذلك لأن الاهالى كانوا شديدي الفقر . وأثار هذا العهد وجدت في جبانات : «الدكة» و «عنيبة» و «فرس» (شكل ١١) . وتمتاز مقابر هذا العصر بأن مبانيها العلوية التي على سطح الأرض مقامة من الحجر الجيري الأبيض فوق حفرة صغيرة مستديرة الشكل ، أما الاثاث الجنائزي فكان يحتوي على أوان من الفخار الأحمر ، منى الفوهة السوداء . وفخار أحمر فوهته محزوزة وأطباق عليها حروز بيضاء ، تذكرنا بالأطباق النوبية الخاصة بالعهد السابق ، غير أنها تختلف عنها من حيث الصناعة والنماذج ، ووجدت المرايا المصنوعة من النحاس . ولم يعثر على المحار الخاص بحفظ مواد الزينة الا قليلا . ووجد عدد عظيم من الحلوى مؤلف من قلائد من الخرز . ويبدل فحوص الفخار الخاص بهذا العصر ، على أنه لم يتم في بلاد النوبة ، بل انه ظهر وانتشر في البلاد بعد هجرة العناصر الجديدة اليها . ونخص بالذكر الأواني الفخارية المحزوزة التي تعد من أحسن الأشغال ، التي ظهرت في بلاد النوبة عامة .

بداية الدولة الوسطى :

وفي أواخر عهد الأسرة العاشرة بدأ نجم مدينة طيبة (الأقصر الآن) يلعب ، فظهر بهذه المدينة أمراء أقوياء . استقلوا بالبلاد المصرية الممتدة من طيبة الى الشلال ، واتخذوا لأنفسهم لقب (حماة باب مصر الجنوبي) ، ثم أخذوا ينتزعون البلاد تدريجيا ، حتى انتهى الأمر بقيام الأسرة الحادية عشرة ، التي يعدها المؤرخون بدء الدولة الوسطى .

اتخذ ملوك الأسرة الحادية عشرة مدينة طيبة عاصمة لهم ، وأعادوا البلاد الى ما كانت عليه من وحدة وارتباط ، وحكمت هذه الأسرة البلاد مئة وستين سنة ، تعرضت البلاد بعدها الى غزو أجنيب ، فهب لملاقاته أحد أمراء طيبة « أمنمحات » وبعد ان تمكن من طرد العدو أنشأ الأسرة الثانية عشرة ، وقد تمكن هذا الملك من القضاء على نفوذ الأسرة بالدهاء تارة وبتقديم الهدايا ومنح الهبات والعطايا تارة أخرى .

ويعد عصر الأسرة الثانية عشرة أزهى عصور الدولة الوسطى ، اذ انتشر فيه الأمن وساد النظام ، وتقدمت الزراعة بفضل عناية ملوكها الذين آثروا صالح الشعب على بناء الأهرام الضخمة ، وفي هذا العصر أحييت العلوم والفنون ، وشيدت المباني ونشطت التجارة بين مصر والخارج .
ملوك الدولة الوسطى والنوبة : وقد أهتم أمنمحات الأول مؤسس

الأسرة ١٢ بمد نفوذه الى بلاد النوبة ، بعد ان كانت الحملات قد توقفت عنها منذ الأسرة السادسة . ويميل الاستاذ (ينكر) الى أن أم هذا الملك كانت من اصل نوبى فيقول : « ان طراز محيا الملك الجديد يحتمل انه من أصل نوبى وبخاصة ان عظم الوجنتين فيه ما يدل على انه من أم نوبية ولدينا نقوش عدة تؤكد لنا ذلك ، ونخص بالذكر منها أولا تلميحه بذلك فى تعاليمه المنسوبة اليه وهى التى ألقى فيها على ابنه دروسا فى الحياة فيقول : « قد أذلت السود ، واصطدت التماسيح وقهرت أهل واوات وأسرت قوم المزوى » (شكل ١١) كما وجد له نقش مختصر على صخرة بالقرب من (كورسكو) (شكل ١١) يدل على وصول جيوشه الى هذه البقعة فى السنة التاسعة والعشرين من حكمه . والجملة الوحيدة التى تهسنا فى هذا النقش هى :

« لقد أتينا الواوات لقمهرها » . وتدل هذه الجملة على ان العلاقات بين البلدين لم تكن ودية .

ويقال ان هذا الملك قد اسس محطة تجارية على الجانب الشرقى من النيل مكان كرمة الحلالية ، وبنى قلعة هناك سميت « أسوار أمنمحيث » أو « اينبو أمنمحيث » ولا تزال بقاياها موجودة ويسمونها الأهالي « الدفوفة » وهي عبارة عن كومة من الطوب الأخضر (اللين) على علو خمسين قدما ، وفوقها بنيت مخازن ومكاتب لمدنوب الحكومة المصرية ، الذين كانوا ينظمون التجارة بين مصر والسودان . وكانت هناك حامية من العساكر المصريين لكي يحصوا هذه المحطة خشية هجوم الأهالي . وكانت القلعة بوابة لمدينة تجارية مزدهرة استمرت أكثر من ٣٠٠ عام .

ولم تكن قلعة أمنمحيث مجرد حصن فقط أو محطة تجارية فحسب ، بل كانت بمثابة الشعاع لنشر الحضارة في بلاد كوش ، وهي البلاد التي تقع جنوب الشلال الثانى (شكل ١١) وكانت تمر عليها البضائع الثمينة من الجنوب مثل العاج وريش النعام وبيضه وجلود النمره والرقيق ، وكذلك كان الذهب يجلب من جبال أثيوبيا .

وبمرور الزمن نشأت صناعة بداخل المدينة وخاصة صناعة الخزف ، وساعد على اجادة الصنع تواجد المصريين القاطنين في البلد . وخزف كرمة أجمل خزف عرف في وادى النيل منذ فجر التاريخ ، ويرعوا في نحت حجارة البناء حتى فاقوا عمال مصر نفسها .

ولما توفى « أمنمحات الأول » سنة ١٩٧٠ ق م تولى بعده ابنه سنوسرت الأول وقد سار سيرة والده في الفتح ، فتوغلت جيوشه في بلاد النوبة حتى وصلت الى بلاد « كوش » وكان هم المصرى في هذه البلاد هو

استغلال مواردها وبخاصة مناجم الذهب التي كانت تخرز بها تلك الجهات وكان على المصري للحصول على ذلك أن يستغل النوبي بطريقة منتظمة ، فيستولى على ما لديه من مواد غفل باعتبارها ضريبة يدفعها له أو كان يعمل بالتعاون معه لاستخراجها • أو على الأقل كان لا يمنع من الحصول على هذه المنتجات •

وكان السكان الوطنيون في هذا العصر قد وقفوا في وجه أطماع المصريين بقوة وبأس شديدين ، وذلك لأنهم وجدوا في أطماع المصريين خطرا يهدد استقلالهم ، وخشوا من تسلط المصريين عليهم والقضاء على حريتهم • وتدل الأحوال على أن النوبيين دفعوا الجزية للمصريين في عهد الأسرة الحادية عشرة • كما كانوا يوردون لهم الاسلع أو يبيعونها تحت الضغط المصري • ومن الجائز أنه قد حدثت أعمال غير مرضية من كلا الجانبين، مما أدى الى سوء التفاهم واضطراب العلاقات بين البلدين ، ولا أدل على ذلك من أننا لم نجد في هذا الوقت تبادلا تجاريا بين البلدين يسير على طريق الود والمهادنة ، وعلى ذلك لم يكن لمصر أمام هذا الموقف الا ان تحتل بلاد النوبة احتلالا عسكريا ليؤمنوا الطرق التالى تمكنهم من تصريف تجارتهم • وتعد الحملة التي قام بها سنوسرت الأول حتى الشلال الثالث من أهم الحملات التي قام بها ملوك الأسرة الثانية عشرة • وكان الغرض منها اخضاع قبائل السودان وتثبيت حدود مصر الجنوبية الى نقطة تبعد ٢٥٠ كيلو مترا من جنوبي وادى حلفا •

وتدل شواهد الأحوال على ان المصريين قد استعملوا العسف في بلاد النوبة ، فيقول سنوسرت الأول : « ان كل نوبي سيدفع الجزية بمثابة

خادم .. وعلى كل نوبى ان يسير سيرا حسنا فى تقديم محصولاته لمصر» (١) ويظهر أن سياسة مصر فى هذه البلاد كانت ناجحة ، ذلك لأننا لم نسمع عن ارسال حملات اليها فى عهد كل من أمنمحات الثانى وسنوسرت الثانى ، كما اننا لاحظنا أن التجارة نشطت فى عهدهما ، وازدهرت بين مصر وبلاد النوبة .

وتدل شواهد الأحوال على أنه فى تلك الفترة قد تم نظام الحاميات ، كما تم بناؤها ونستدل على ذلك من نقش وجد على صخرة فى أسوان مؤرخ بالسنة الخامسة والثلاثين من عهد أمنمحات الثانى خاص بتفتيش هذه الحصون .

لكن هذا الهدوء الذى شمل البلاد ، مالبث أن أعقبه اضطرابات وهجمات على القوافل فى السنة الثامنة من عهد سنوسرت الثالث ، فاضطر هذا الفرعون لارسال حملة الى بلاد النوبة . ومن المحتمل أن سبب قيام هذه الهجمات من جانب النوبيين يرجع الى الخمول العسكرى الذى ساد انبلاد فى عهد هذين الملكين السابقين . وهو الذى شجع السكان فى السودان على القيام بالهجرة فى البلاد من الجزء الجنوبى من السودان ، مما أدى الى طرد قبائل أخرى امامها نحو الشمال . وكان لزاما على سنوسرت الثالث للقيام بحملته على المعيرين أن يكون لديه أسطول عظيم لنقل الجنود لاعدادهم بالغذاء والمهمات باستمرار ، ولما كانت صخور الشلال تعترض مرور هذا الأسطول ، الا فى زمن الفيضان .

ولما كانت القنوات التى حفرها الأمير : أونى فى عهد الأسرة السادسة

(١) عشر على اللوحة التى عليها هذا النقش فى وادى الهودى على مسافة ٢٨ كم فى

الجنوب الشرقى من أسوان (شكل ١)

قد هدمت ولم تعد صالحة لما يتطلبه الموقف ، اضطر هذا الفرعون الى اعادة تعميق هذه القنوات حتى يمكن تسيير سفنه ونجب الشلال ، وقضرت هذه القنوات حفرا جيدا ، حتى انها ظلت مستعملة بعد ذلك حوالى من ٣٠٠ - ٤٠٠ سنة ، وكان من نتائج هذه الحملة أن تقدم المصريون في زحفهم جنوبا نحو سبعة وثلاثين ميلا جنوبى وادى حلقا ، ولكنهم كانوا لا يزالون بعيدين عن (كرمة) التى كانت مقر الحكم لهذه الجهات منذ عهد الملك «سنوسرت الأول» الذى وصلت فتوحه الى الشلال الرابع (شكل ١١)

ولقد نصب سنوسرت الثالث لوحا فى بلدة سمنة عرف هذا باسم «لوح الحدود» لمنع هجرة أهل السودان لمصر (شكل ١١) وكتب على اللوح ما نصه : هذا حد مصر الجنوبى الذى عين فى السنة الثامنة من حكم الملك سنوسرت الثالث المخلد الذكر ، فلا يجوز لأحد من السودان أن يتعداه الا فى سفن نقل البقر والماعز والحمير من بلاده ، كما عثر على لوح آخر لهذا الملك بالقرب من سمنة وجد عليه ما يفهم منه أن الملك المذكور وضع هذا الحجر فى السنة السادسة عشرة من حكمه ، فجعله حدا فاصلا بين مصر والسودان ، وانه أمر أن ينصب له تمثال فى تلك الجهة ، فكان له ما أراد ويظهر أن بلاد النوبة قد تطلبت من هذا الفرعون غزوات عدة قبل أن تخضع تماما للحكم المصرى . ذلك لأن اللوائح التى وجدت فى سمنة تدل على انه بعد الحملة التى أرسلها سنة ١٦ من حكمه ، بنى حصنا قويا عند سمنة كما بنى فى الجهة الشرقية من النهر قبالة سمنة ، قلعة أخرى صغيرة تعرف باسم (قمة) لذلك كان من الصعب مرور أى جيش فى النهر من هذه الجهة ، وخرائب هاتين القلعتين لا تزال باقية الى اليوم . وكان فى كل من الحصنين السابقين معبد . ففى سمنة كان معبد الاله « ددون »

وهو الاله المحلي لهذه الجهة . وفي قمة معبد للاله « خنوم » معبود أسوان
والفتين . وفي هذين المعبدين احتفل سنوسرت احتفالا عظيما ابتهاجا
باتتصاراته على أهل الجنوب . وهذه الأعياد قد بقيت ذكراها الى أزمان
بعيدة ، حتى أن تحتسب الثالث - في عهد الدولة الحديثة - عندما أعاد
بناء معبد سلفه بعد ٣٧٠ سنة ، احيا الاحتفال بهذا العيد ، بل آله الملك
سنوسرت الثالث وجعله ثالث آلهة الحدود التي أسسها .

وتعد نقوش لوحة سنة التي سجلت لنا حملة السنة السادسة عشرة من
حكم هذا الفرعون من أهم النقوش التي وصلت الينا من هذا العصر ، ولا
تنحصر أهميتها في أنها حددت لنا التخوم المصرية في هذا العهد في بلاد
النوبة ، بل ان جملها المنمقة تعد بحق من أهم ما تركه لنا قدماء المصريين في
كل عصورهم ، اذ يمثل لنا فيها قوة ارادة هذا الفرعون ، وشدة حرصه
على مجد بلاده ، واذ كاؤه نار الغيرة في نفوس أخلافه للمحافظة على
فتوحاته والدفع عن حدودها بالنفس والنفيس .

وعلى كل حال فان سنوسرت الثالث قد قام بحروب عظيمة في السودان
لما كان من أهلها من عبث بالأمن ومناهضة المصريين . ولا تقل الحملات
التي قام بها على حسب أحدث الكشوف ، التي قامت في الأزمان الاخيرة
عن أربع حملات . وبعد انتهاء عهد هذا الفرعون يظهر أن البلاد في عهد
من جاء بعده من فراعنة هذه الأسرة ، بل وفراعنة الأسرة ١٣ ، كانت في
سلام ، وكانت بلاد النوبة مرتبطة بمصر ارتباطا وثيقا من حيث تبادل
التجارة .

وتدل أعمال الحضرة على أنه في عهد أمنمحات الثالث حدث في (كومة)
اصلاح في سور « أينبو أمنمحات » على يد موظف مصري ، مما يدل على

أنه في هذا العهد كانت وكالة التجارة للحكومة محمية ، وأن التجارة كانت مزدهرة بين السودان ومصر ، ولم يقف الأمر عند حد ازدهار التجارة فحسب ، بل ان اتساع رقعة مصر نحو السودان ، أدى الى تمازج الأفكار بين البلدين . ومن أهم الأفكار التي جلبت الى بلاد كوش هي المعتقدات الدينية المصرية ، فأحتلت عبادة الاله « آمون رع » مكانة عظمى عند الناس في تلك البلاد ، ولعلنا نذكر اسم الملك السوداني « بيغني ميري آمون » ومعناها بيغني حبيب آمون .

حاميات السودان المصرية للمحافظة على طرق التجارة :

تكلسنا عن الحملات التي قام بها ملوك الدولة الوسطى في السودان وما قاموا به من جهود في العمل على استتباب الأمن والسلام بين البلدين مما أدى في نهاية الامر الى اقامة الحصون والمعازل في جهات عدة لتأمين مراكزهم التجارية في هذا الاقليم المترامي الأطراف من الشلال الأول حتى الشلال الرابع .

ولدينا قائمة بالحصون التي أقامها الفراعنة في هذه البلاد يرجع تلويخ اقامتها الاى حوالي مائة عام قبل بداية الأسرة الثامنة عشرة عشر عليه في طيبة . ويبلغ عدد الحصون التي ذكرت سبعة عشر حصنا لم تتحققها جميعا . وأهم هذه الحصون هي : سمنة وقمة وورنوني وبهين وغنبيه (معام) والفتنين (أبو) وفرس (شكل ١١) . ويتضح من فحص الوثيقة التي عشر تليها أسماء هذه الحصون أنها كانت ذات وظيفتين : كانت بمثابة سد منيع امام أى اعتداء حربى منتظر ، وكذلك كانت حاجزا ضد الضغط المستمر الذي كان يهدد مصر وأملاكها ، نتيجة لغارات أهل السودان المستمرة ، ومن جهة أخرى كانت تستعمل بمثابة محاط تجارية .

وهذه الحصون كآيت تقام عادة في وسط الوديان بالقرب من النهر •
وبذلك تكون الرابطة مع الحصون الأخرى النوبية التي تؤدي الى
الاتصالات مع البلاد المصرية نفسها •

ولما كانت الرابطة بين الحصون بطريقة الماء ليست سهلة في بلاد النوبة
العليا كما هي الحال في بلاد النوبة السفلى ، فان كل حصن على وجه عام
كان يعتمد على نفسه ولذلك أقيمت الحصون بطريقة تجعل كل منها يجتوى
على حامية صغيرة تصد غائلة الهجوم المفاجيء ، وقد كشف البحث في فرس
عن حصن من حصون الوديان ، ونلاحظ أن الهر قد غير مجراه ، فبعد
الحصن بعض الشيء عن النهر ، ويمكن تفقد هذا الحصن من وجهتين :
فيوجد في داخل المبنى على طول امتداده فضاء كبير على هيئة مربع ، وبجانب
ذلك ميناء نهري ، ليست بعيدة عن النهر ومحمية بالجدران • ومن هذين
العنصرين يتألف الحصن على هيئة مستطيل أبعاده طويلة ، ووضعه الطويل
محاز للنهر • وبلاحظ أن أقوى التحصينات يقع في ضلع الحصن المطل
على اليابس •

أما الحصون الجبلية التي كانت توجد في جهة الشلال فقط فان السهل
كان العامل الفاصل في تكوين الحصن وفي كيفية اقامته • وكان على
المهاجم في هذه الحالة لاجل ان يستغل السهل ليصل الى سطح جدار
الحصن ، ان يتسلق عقبات ، كما كان عليه أن يصعد مرتفعات عمودية ،
والا فان الميزة الاستراتيجية للحصن تصبح على العكس لاقيمة لها • وكان
بكل حصن من الحصون معبد ومخزن غلات وبيت مال •

أما من حيث ثقافة بلاد النوبة السفلى في هذا العصر ، فمن الجائز انه
منذ عهد الدولة الوسطى قد وجدت أشياء كمالية في القبور بكثرة بعض الشيء •

اذ قد وجدت مرايا من النحاس ، ولكن الخناجر المصرية البحتة المصنوعة من البرنز ، قد وجدت في المقابر النوبية ببلدة عنبية أولا ، في بداية الدولة الوسطى ، وتوجد كذلك أسلحة في مقابر هذا العهد ولكنها نادرة .
ثقافة كرمة :

في الوقت الذى كانت تسود النوبة السفلى ثقافة متأثرة الى حد كبير بالثقافة المصرية نتيجة لاختلاط سكان البلدين ، كانت تزدهر في بلاد النوبة العليا ثقافة أخرى ، وذلك ان الأستاذ رزفر عثر في بلدة «كرمة» شمال جزيرة «أرقو» مباشرة جنوب الشلال الثالث على جبانة وطنية ، وعلى آثار مستودع تجارى ، وقال ان أهل هذه الثقافة ، التى يرجع تاريخها من عهد الدولة الوسطى الى قيام الدولة الحديثة : (انهم ليسوا زنوجا بل ينسبون الى مجموعة سكان شمال افريقية ، ويحتمل ان يكونوا اللوبيون فرعا منهم ، هذا الجنس يتميز بالأنف المفرطح وتقاطع بارزة تعادل الميزات الزنجية الخاصة بالهياكل العظمية النوبية ، واما المقابر المتأخرة في هذا العصر فيلاحظ أن السكان أصبحوا مختلطي الجنس) .

وعلى ذلك ينبغي أن ينظر الى سكان كرمة في هذه الفترة كما ينظر على وجه التقريب الى سكان قرية أمدرمان الحالية . حيث يجد فيها الانسان الآن كل الأجناس التى تسكن أعالي وادى النيل .

وكانت المقابر التى كشفت فى كرمة فى صورة تل مستدير الشكل يحيط بها لوحات من الحجر الرملى ، ويوجد فى داخلها مبنى مؤلف من جدران من اللبنة قد أقيم فى وسط هذا المبنى دهليز ، يمتد من الشرق الى الغرب ويبلغ عرضه حوالى مترين . ومن هذا الدهليز يتفرع شمالا وجنوبا حتى محيط دائرة هذه الجبانة ، عدة جدران متوازية تقطعها جدران أخرى

في نقطة متعددة مرتبطة بعضها ببعض ومن ذلك يتكون في كل من الجزء الشمالي والجنوبي عدة حجرات صغيرة تعرف عليها الأستاذ رزقر ، بأنها مقابر . وفي وسط هذا الدهليز نجد بابا لحجرة أمامية مسقفة بسقف مقبب ، وهي أكبر حجرة في كل هذه المؤسسة .

ولا نزاع في أن الشخص ، الذي دفن في هذه الحجرة كان أميرا وبجانبه كانت تضطجع زوجته على سرير من الخشب ، وعلى رقعة الحجرة وجد رجال ونساء قد دفنوا انفسهم يحياء طوعا أو كرها مع الأمير وزوجته . ويبلغ عدد هؤلاء حوالي مائة شخص . هذا وتقدم لنا الأشياء التي كاتت توضع مع المتوفى في قبره لاستعماله اليومي في عالم الآخرة « في كرمة » ، لمحقن ثقافة بلاد النوبة العليا في هذا العهد . فبعض المحتويات قد صنع بدون شك في نفس بلاد النوبة ، وبعضها تأثر كثيرا في صنعه بالطابع المصري ، حتى كان من الصعب أن يميز بين النوعين . وبخاصة الأباريق والظسوت وأطباق الأكل والشرب والمسوح . وهي مصنوعة في مصانع فخار يدوي . وأشكال الأدوات التي وجدت في كرمة . تؤلف مجموعة منقطعة النظير في كل من مصر وبلاد النوبة .

ولدينا أيضا من الصناعات الوطنية بوجه خاص الأثاث المصنوع من انجارة الدقيقة كالأسرة والكراسي والمخدات والتواييت . يضاف الى ذلك الأشياء المصنوعة من الجلد والتي منها الأحزمة والمبدعات الجميلة للسيدات العذارى ، والاحذية وأغطية وأربطة الأسرة والكراسي والشبابيك وعلاقات للاواني الفخارية .

أما المصنوعات المعدنية فنجد أن الصانع كان يصوغ أدوات الزينة الجميلة ، التي وجد منها الكثير ، ونخص بالذكر الأساور والأقراط وقطع الحلوى الأخرى ، والنحاس الذي كانت مادته في نفس البلاد ، فكان يصنع منه أنواع الآلات مثل السكاكين والموسيات . ولا نعلم تمام العلم إذا كانت الخناجر - وهي السلاح الوحيد الذي وجد في مقابر النوبة في هذه الفترة من الحاصلات المحلية أو جلبت إلى مصر .

وتمتاز مصوغات كريمة بما تنتجه من الخزارف المصنوعة من الميكا ، وهذه المادة قد وجدت في مصر منذ عصر ما قبل التاريخ ، وقد وجدت المرايا من الميكا في العهد العتيق في بلاد النوبة . وأهم ما يلفت النظر في استعمال هذه المادة في كريمة هو استعمالها زينة في صنع القبعات المصنوعة من الجلد التي خيطة فيها قطع من هذه المادة ذات أشكال مختلفة تمثل الزراق والطيور والأزهار الصغيرة ، وأشكال هندسية أخرى منوعة ، وتجد مثل هذه الأشكال مصنوعة من سن الفيل في صور حيوانات مثل الثعلب والنعام والصقور مطعمة في خشب الأسرة ، ولا نزاع في أن جزءا عظيما من الخرز والتعاويد التي وجدت في هذه الجهة هي من شغل كريمة .

مقارنة بين ثقافتى النوبة السفلى وكريمة :

مما سبق نجد ان لدينا ثقافتين منفصلة احدهما عن الأخرى انفصالا تاما ، وكلاهما ينتسب الى عصر النحاس المتأخر وهما متفرعتان من الثقافة الافريقية وقد انفصل كل منهما عن الآخر منذ العصور الأولى ، ونمت كل منهما على حدة وبقيت كل منهما لا تؤثر على الأخرى كما يقول بعض المؤرخين . ولكن الأستاذ «ينكر» يؤكد أن ثقافة النوبة السفلى ، قد تأثرت بثقافة كريمة . فيوجد بين الثقافتين رابطة جنسية تربط بعضهما ببعض ، هذا فضلا عن

أن كلا من الفريقين كان يفلح الأرض ويرعى الماشية . كما نجد تشابها بينهما من حيث الملابس ، وبخاصة الأحزمة المزينة بالخرز ، وكذلك من جهة المحاصيل اليدوية ، فهي مشاعة بينهما ولكن نجد فروعا ضخمة من ناحية مؤسسات المقابر ، التي تتشابه جميعا في الظاهر . إذ نجدها كلها على هيئة كومة مستديرة ، وكذلك تختلف في عادة الدفن ، إذ كانت العادة في كرمة ، أن يدفن مع الرئيس ، عدد عظيم من الناس المذبوحين ، ومعهم أدوات زينة خاصة . ولكن في ثقافة النوبة السفلى في هذا العهد كان صاحب المقبرة يدفن وحده . ويلاحظ أنه لم توجد قطع فنية كالتماثيل وغيرها من الصناعة النوبية الوطنية ، بل كادت تكون معدومة في كرمة . أما في مجموعة النوبة السفلى ، فلدينا جمع غفير من التماثيل الصغيرة للرجال والنساء . أما الصور التي في المناظر ، فنجد في كرمة أحيانا صورا فضمة مطعمة بسن الفيل والميكا والخشب والجلد . وفي المجموعة الثانية « لدينا صور مختلفة عن السابقة من حيث الأسلوب اختلافا تاما رسمت على أوان من الفخار ، صور منحوتة لرجال وحيوانات ، وهي تذكرنا بالصور التي كانت ترسم على جدران الأواني المصرية ، ما قبل التاريخ . يضاف الى ذلك بعض الاختلافات في الملابس ، إذ نجد في كرمة القوم يلبسون القبعة مصنوعة من الجلد والمزينة بقطع من الميكا ، عليها صور مختلفة ، ولا نجد في كرمة ما نجده من خواص الثقافة الأخرى ، وأعني بذلك الأقراط وأساور السواعد المصنوعة من أصداف البحر . وخلاصة القول ، أن مجموعة الأشياء التي أنتجتها حفائر كرمة ، تؤلف مجموعة أثرية لها علاقة ظاهرة جلية من جهة بمجموعة الدول الوسطى المصرية

ومن جهة أخرى لها علاقة أقل ارتباطا بمجموعة بلاد النوبة الأثرية ،التي
في نفس العهد ، غير أن مجموعة ثقافة كرمة في حد ذاتها تعد نسيجاً
وحدها . فالصبغة الخاصة بالمحاصيل الفنية والصناعية ، التي وجدت في
المقابر تفسر بطبيعة الحال وبكل بساطة ، صبغة الموقع الجغرافي الذي
يسكن فيه القوم .

مستودع كرمة التجارى :

هذا المستودع يقع على مسافة كيلو مترين من شاطئ النيل ، وعلى
مسيرة خمسة كيلو مترات من جزيرة « أرقو » ويتألف من مبنى على صورة
مستطيل مقام باللبنات . وكان ارتفاعه ١٩٥٩ من الأمتار عند الكشف
عنه . والدور العلوى الذى كان مخصصا للسكن والمؤن قد هدم ولم
يبق منه الا الجزء الأسفل .

ويدل ما عثر عليه في هذا المبنى من مواد غفل وأوان مثل السلال ،
والأوعية المصنوعة من الفخار الكثيرة العدد المختومة ، على أن هذه
المؤسسة كانت مركزا تجاريا هاما .

وكان المبنى مخصصا لسكنى المصريين ، الذين كانوا يشتغلون بالتجارة
مع أهالى الجنوب ، والتاريخ الأصيلى لاقامة هذا المستودع غير معروف ؟
على أنه على ما يظهر يرجع الى عهد الأسرة الثانية عشرة .

وتدل القطع الأثرية المؤخرة ، التي وجدت في المستودع التجارى بوجه
التأكيد على استمرار وجود هذا المستودع حتى عهد الهسكوس . فنجد
فضلا عن طوابع أختام عديدة ذات طراز خاص بهذا العصر ، أسماء سبعة
ملوك وتدل شواهد الاحوال على أن هذا المستودع قد امتد زمنه حتى
بداية عهد الدولة الحديثة الى ان خربه حريق .

وقد وجدت جبانات ضخمة بالقرب من هذا المستودع ، وهي تقع على مسافة ثلاثة كيلو مترات شرقي مستودع التجارة . وتشمل عدة مقابر مستديرة على هيئة تل ، بعضها كبير والآخر صغير ، كما تحتوي على مزارين مستطيلي الشكل ، وحجرات هذين المزارين مزينة بالرسوم ، وبالأعمدة المقامة في وسطها . ولا نزاع في ان هذين الأكوام المستديرة الشكل هي مقابر السكان الاصليين . ويجب ان نلاحظ هنا أن ما وجد فيها هو أساسه وطنى غير أنه تأثر تأثيرا عظيما بالثقافة المصرية . ويدل ما في هذه الجبانات الضخمة من الانتاج الصناعى القومى ، وبخاصة الخاجر ذات الشكل الخاص ، على أن أصحابها كانوا محاربين .

الهكسوس واثريهم فى السودان

كانت مصر فى عهد الأسرة ١٢ أقوى دولة فى الشرق الأدنى أى فى خلالى القرن ١٩ ق . م ، فكانت تسيطر على بلاد النوبة السفلى جيوش مصرية ، فى حين أنه فى بلاد النوبة العليا ، كانت الوكالات او المستودعات المصرية فى كرمة مزدهرة نامية .

وبعد سقوط الأسرة ١٢ (١٧٧٥ ق . م) ، عادت مصر الى حالتها بعد الأسرة السادسة ، لان ما ساد البلاد من الاضطراب والفوضى فى كلتا الحالتين ، يرجع الى ظروف وعوامل متشابهة . ذلك لان ازدياد نفوذ الامراء ، وعظم شوكتهم ، نتيجة لازمة لضعف الملكية ، اتقل الحكم من الأسرة ٢١ الى الأسرة ١٣ دون نزاع ، ولكن لم يكبد يجلس أول ملوكها على العرش خمس سنوات حتى خلع منه .

وتبع ذلك عصر فتن وشقاق وحروب داخلية ، بين أمراء الأقاليم ، ابتغاء الوصول الى العرش ، حتى حكم منهم ستون ملكا زهاء قرن وربع قرن وكانت مدة حكمهم تتراوح بين سنة وثلاث سنوات ، وبلغت أحيانا يومين أو ثلاثة أيام وأدى تنازعهم على الملك الى اضطراب الحكومة ، واختلال الامن ، وساءت الحالة الاقتصادية لاهمال الرى وسوء توزيعه ، وكثرة الضرائب التى فرضها الملوك والحكام على الشعب لانفاقها فى حروبهم الداخلية .

ولما كانت البلاد على هذه الحال ، من الشقاق والتفكك والضعف ، كان من السهل أن تقع غنيمة فى أيدي الفاتحين من الأجانب ، ففى أواخر الأسرة ١٣ حوالى سنة ١٦٥٧ ق.م ، أغار على مصر قوم اسويون وهم المعروفون باسم (الهكسوس) وقد كان هؤلاء يحكمون سوريا . وفلسطين ، ثم غزوا مصر وحكموها . واتخذوا (أفاريس) فى شرق الدلتا عاصمة لهم ، لتكون وسطا بين مصر وأملاكهم فى فلسطين وسوريا وقد استبقى الهكسوس الملوك المصريين على عروشهم فى خلال الاسرتين ١٣ ، ١٤ واكتفوا بأن جعلوهم خاضعين لهم .

حكم الهكسوس مصر بعد ذلك منفردين فى الاسرتين ١٦ ، ١٥ ، والغالب أن مدة حكمهم لم تزيد عن مائة سنة . وكانوا أول أمرهم ظالمين ، فجعلوا يحرقون المدن ويحطمون المعابد ، ويعتدون على الأهلين ، ويستعبدون النساء والاطفال . ثم غلب عليهم التمدن المصرى ، فحاولوا التصمر وأحسنوا معاملة المصريين . ومع ذلك فقد ظل المصريون يحتقرونها ويعتقدون أنهم وضموا بوقوعهم تحت حكم الهكسوس . وقد قضى ملوك الهكسوس ردها من الزمن ، كانوا فيه أقوياء ، فامتد

سلطانهم على بلاد النوبة السفلى ، كما استحوذوا على التجارة في كرمة ، واستمرت هذه التجارة مزدهرة دون أى انقطاع لمدة تقرب من قرن ، بعد ان استولى الهكسوس على مصر . ويدلنا على هذه الصلة ببلاد النوبة ، وجود أسماء ملوك الهكسوس على طوابع أختام فى المستودع التجارى ، وهى بلاشك كانت مستعملة لختم الوثائق الرسمية . وبغير ذلك لا يمكننا تفسير وجود أسماء ملوك الهكسوس على طوابع أختام فى مستودع كرمة . واذا كانوا جعلوا مستودع كرمة ، تحت سلطانهم ، فان بلاد النوبة السفلى كانت بطبيعة الحال فى قبضتهم . ولا نزاع فى ان كثيرا من الأختام ، التى وجدت فى المقابر المصرية ببلاد النوبة السفلى ، وهى بكل تأكيد تابعة لعصر الهكسوس . ولم يكن من المتصور قط ، أن يبقى مستودع كرمة مستمرا عندما كانت مراقبة أهالى النوبة السفلى قد انقطعت ، وكذلك خطوط المواصلات التجارية ، لم تكن بعد فى يد الحكومة المصرية .

والظاهر ان الهكسوس لم يكن فى مقدورهم ، أن يمدوا سلطانهم مدة طويلة الوجه القبلى ، اذ لقى هذ الحكم معارضة وطنية شديدة من صغار الحكام ، الى ان قام أهالى اقليم (طيبة) وأسسوا الاسرة السابعة عشرة ، التى احتلت مكانة ممتازة فى لصعيد . وفى هذا الوقت كان الانحلال السياسى فى الهكسوس ، وكذلك بين صغار ملوك الأسرات فى الوجه القبلى ، قد أضعف سياسة مصر الخارجية بقوة ، وبذلك اضمحلت التجارة مع الجنوب . وتدل الآثار التى وجدت فى كرمة فى هذا العهد على ان مستودع كرمة ، كان قد قضى عليه وأصبح خرابا . وكذلك نجد أنه فى نفس الوقت تقريبا كانت مصر قد فقدت سلطانها على بلاد النوبة السفلى .

وليس لدينا معلومات أكيدة من عهد الهكسوس المتأخر ، ولا من عهد الأسرة ١٧ عن نشاط مصر السياسى فى الجنوب . وتدلنا احدى اللوحات على ان بلاد النوبة فى نهاية الأسرة ١٧ كانت دائما بلادا حرة مستقلة يسكنها عقد المحافظات مع البلاد الأخرى .

ولكن من المؤكد أنه كان هناك ثلاث ممالك كبيرة . مصر الشمالية تحت حكم ملك الهكسوس ، ومصر العليا حتى قوص تحت حكم (كايوش) وكوش تحت ملك نوبى .

وحينما أصبحت بلاد النوبة حرة ، وصارت المدينة المصرية المنتشرة هناك كان من الطبيعى ، أن يرحب بالمصريين ، الذين يريدون أن يخدموا الحكام الوطنيين . . . واذا كانت بلاد النوبة السفلى محكومة بحاكم واحد ميوله مع المصريين ، والمدينة المصرية ، فان التغيير السريع فى الميول ، كان بطبيعة الأحوال اكثر سهولة لتفسير ذلك . وفى ظل هذه السياسة السلمية قام أهل النوبة بهجرات عظيمة نحو مصر ، من ذلك يمكن ان نفسر تمصير بلاد النوبة السفلى من الناحية السيكولوجية ، وذلك أن المصرى اذا دخل بلاد النوبة بوصفه سيدا أجنبيا ، شعر النوبى بالحقد والبغضاء ، ولكن عندما أصبحت السياسة فى بلاد النوبة غير تابعة لغيرها ، وكان فضلا عن ذلك عدد كبير من النوبيين يرحلون الى مصر بوصفهم جنودا مرتزقة . أصبح الذوق المصرى هو التابع فى بلاد النوبة . فأصبحوا يجهزون بتوايت لتلدفن ، على غرار الذوق المصرى ، كذلك جلبت الأواني الفخارية المصرية وقلدت فى بلاد النوبة ، كما لبس القوم ملابس مصرية ومن المحتمل أن هذا السلوك ، قد بدأ به صغار الملوك النوبيين ، الذين رأوا أن يفعلوا ما يفعله زملاؤهم المصريون .

وعلى الرغم من ان دفن النوبيين فى مصر يكاد يكون معدوما فى عهد

الدولة القديمة ، ذلك لأن النوبي كان بعد انتهاء مدة خدمته في مصر يعود ليدفن في موطنه الاصلى ، الا اننا نجد الآن في الوجه القبلى جبانات نوبية ومستعمرات ، وهى التى تسمى ثقافة المقابر القعبية الشكل وتمتد في البلاد المصرية حتى بلدة (ريقة) شمالا . وقد وجدت في مقابرهم بلط ، وسهام ونلحظ في البرج النوبى الواقع في بلدة (الريقة) مركز الدر بعض تقليد للمباني المصرية المماثلة ، وهذا المبنى مؤسسة كبيرة ، وهو يكون وحدة منفردة .

وتدل جدرانها المقامة من الحجر على أنه في صورته يؤلف حصنا لأمير وطنى . ولا شك أننا هنا أمام مؤسسة نوبية ، كما يدل على ذلك الفخار المختلط بقطع مصرية معتادة . هذا فضلا عن صناعة البناء كلها وبخاصة الجدران المكونة من ألواح الحجر المرتفعة ، يتخللها ملاط عن غرين النيل ، وأحجار خشنة بمثابة حشو وجدرانها مغطاة بطبقة من الطين ، وهذا الفن من المباني نصادف شبيهه في مساكن الأهالى في (وادى العرب)

ومن المحتمل أنه كان يوجد في بلاد النوبة السفلى مؤسسات أخرى من هذا النوع . ولكن الذى كان في (الريقة) هو المؤسسة الوحيدة كبيرة الحجم ، وقد جاء ذكر مختصر لمستعمرة على مسافة ٣٠٠ متر شمالي (عنبية) وهى تشبه مؤسسة (الريقة) .

الفصل الرابع

السودان في عهد الدولة الحديثة

١٥٨٠ - ١١٥٠ ق م

١ - طرد الهكسوس : في حوالي سنة ١٦٠٠ ق م ظهر في مدينة طيبة أمراء مصريون عظماء يعدهم المؤرخون ملوك الأسرة ١٧ ، وقد عملوا على تخليص البلاد من الهكسوس ، فاستمالوا اليهم بقية أمراء الجنوب ، وبخاصة أمراء الكاب (تحب) ، الذين كانوا على جانب كبير من القوة ، لأن بعد بلادهم عن الشمال جعلهم في مأمن من شر الهكسوس .

ولما سمع الهكسوس بنهوض طيبة ، والتفاف أمراء الجنوب حولها حاولوا القضاء عليها قبل أن يستفحل أمرها ، وبدأت بالفعل الحرب بينها واستمرت مستعمرة مدة طويلة حتى تولى الملك (أحسن الأول) وهو في رأى المؤرخين أول ملوك الأسرة ١٨ فعبا أسطولا بحريا بمساعدة أمراء الكاب ، واتجه به شمالا ليحاصر أفاريس ، عاصمة الهكسوس واستولى عليها ، وطرد الهكسوس من مصر ، ثم أخذ يتعقبهم في فلسطين ويحاصر مدينة (شاروهين) في جنوبها الغربي ، واستولى عليها بعد حصار ثلاث سنوات ، وقام كذلك بحروب في الشام .

أحسن والنوبة (١٥٤٠ - ١٥٥٧ ق م) : ثم وجه (أحسن) بعد ذلك همه الى بلاد النوبة ، بقصد استرجاع ما فقدته مصر منها اذ كان من أثر الاضطرابات التي حدثت ، بعد سقوط الدولة الوسطى أن شقت النوبة

عصا الطاعة على مصر ، وامتنعت عن دفع الجزية فغزا أحسن هذه البلاد وأخضعها .

وتوحي الآثار التي كشفت في بلاد النوبة بأن أحسن قد استولى على الأقل حتى مابعد (بهين) (شكل ١١) ، ويرهن على ذلك النقوش التي عثر عليها في (كوبان) وفي (توشكي) (شكل ١١) وعلى أجزاء مبان من أقدم معبد عثر عليه في (بهين) ومن الجائز ان هذا الملك قد زحف الى جنوب الشلال الثاني وذلك لأنه وجد في حصن مقام على جزيرة (ساي) تمثال نقش عليه اسم هذا الملك .


أمنحتب الأول : (١٥٥٧ - ١٥٣٠ ق م) : وبعد وفاة أحسن الأول خلفه أمنحتب الاول (١٥٥٧ - ١٥٣٠ ق م) . ولم يكديتولى العرش حتى ثار النوبيون ، محاولين الاستقلال عن مصر ، فسار اليهم بنفسه وأخضعهم . ونعلم من الآثار أنه في عهد هذا الملك . قد أقيمت الحدود المصرية الجنوبية عند سمنة ، فقد عثر في (ورنرنى) وفي سمنة على نقوش لنائب الملك (نوري) مؤرخه بالسنين السابعة والثامنة على نقوش من حكم هذا الفرعون .

وعلى أية حال ليس لدينا برهان قاطع على أن أمنحتب الأول قد وصل في زحفه حتى (كاري) الواقعة بالقرب من (نباتا) . ولكن وجود تمثال له في جزيرة (ساي) حديثاً : قد يجعل من الجائز وصوله الى هذه « المنطقة » ولعل الحفائر الحديثة تحدثنا عن ذلك في المستقبل القريب .
تحتس الأول : (١٥٣٠ - ١٥٢٠ ق م) : والواقع أن الذي وسع

تقوم مصر الحقيقي بدرجة أكثر مما وصلت اليه مصر في عهد الدولة الوسطى هو الفرعون (تحتس الاول) في حملته الاولى على هذه البلاد ، والمصادر

عن هذه الحملة لا بأس بها . وتعتبر اللوحة التي اقامها هذا الفرعون عنوانا على انتصاره في (تومبوس) جنوب الشلال الثالث ، على هذه البلاد ، آيين دليل لذلك . ويضاف لذلك نقوش صغيرة وجدت في نفس المكان .

وتدل كل الشواهد على ان سبب هذه الحملة كانت ثورة في بلاد النوبة وان القبائل التي كانت تسكن جنوب الشلال الأول كانت تقوم بهجمات مهددة للامن من هناك ولدينا عامل آخر وهو رغبة المصريين في أن تصبح البلاد الجنوبية التي كانوا يتعاملون معها في عهد الدولة الوسطى في قبضة أيديهم ، ليستولوا منها على المواد الغفل التي تنتجها بلاد السودان وقد وقعت الحملة في السنة الثانية من حكم (تحتمس الأول) وقد عثر في جزيرة (ساي) على نقش مدون على الصخر مؤرخ بهذا التاريخ .

وكان هذا الفتح هو الخطوة الأولى في بناء الامبراطورية المصرية في افريقية ، ذلك لأن هذا الفتح قد تغلب على كل الصعوبات الحربية ، مما مهد الطريق للذين أتوا بعد ، من الفاتحين ، وساروا في فتوحهم حتى الشلال الرابع . والواقع أن خطر الدفاع الطبيعي لأهل الجنوب اخترق ، ومما ينبغي ملاحظته  أن الأسرى الذين استولى عليهم تحتمس الأول في هذه الحملة وأحضرهم الى مصر ، كما نشاهد ذلك في الصور ، لا تدل هيئتهم على أنهم زنوج ، بل انهم من الجنس الحامى .

هذا وقد قسمت بلاد النوبة في عهد تحتمس الأول خمسة أقسام تحت ادارة أمراء نوبيين ، كان لهم نصيب في ادارة مقاطعات البلاد . كما يرجع اليه الفضل في تطهير القناة القديمة لتفادي الشلال الأول . ويعتبر هذا من الأعمال الهامة لحل مسألة المرور ، لضمان مرور كل السلع الآتية من السودان .

تحتس الثاني ومعه حتشبسوت : (١٥٢٠ - ١٤٨٤ ق م) :

وفي السنة الأولى من حكم تحتس الثاني قامت في شمال بلاد كوس ثورة ، وكان الاقليم النوبى قد أصبح فعلا يشمل (كوش) و(واوات) وبذلك كان المقصود ببلاد كوش الاقليم الواقع جنوب الشلال الثاني . ومن جهة لم تكن هذه الثورة كما كان المنتظر في الاقليم المفتوح حديثا جنوبى (سمنة) بل ، شبت في بلاد النوبة السفلى ، وتتلخص في أن أحد الأمراء النوبيين قد حاول بسبب الضعف الذى اصاب البلاد من جراء تغير المتربع على العرش أن يفيد من هذه الفرصة ، ويحرر البلاد نفسها من النير المصرى ومن المحتمل أن أطماع القائم بهذه الثورة لم تذهب الى هذا الحد وانه أراد بشورته هذه النهب لاثراء نفسه وحسب ، هذا ولا نعرف الى اى حد ذهب الأمير النوبى الثائر في ثورته للتححر من النير المصرى . ولكننا نعرف أن الثورة قد أخمدت ، وعاد النظام ، وتدل النقوش صراحة على ان الملك تحتس الثاني لم يرافق هذه الحملة بنفسه ، كما جرت العادة مع ملوك مصر في حروبهم ، ونههم من منطوق المستند أن الهزيمة كانت دائمية ، والانتقام من الثائر كان وحشيا .

وقد مرت فترة طويلة بعد هذه الحملة التأديبية قبل أن نسع بحروب عظيمة في بلاد النوبة ، وتدل الاحوال على انه في عهد الملكة حتشبسوت التى تولت العرش بعد زوجها تحتس الثاني ، قد سادت العلاقات الودية في كل أرجاء الامبراطورية المصرية .

هذا ولا تدل الحفائر التى في السودان على شىء مؤكد عن مد نفوذ مصر في السودان في عهد الملكة حتشبسوت . وكذلك لم يعثر حتى الآن على لوحات أثرية من هذا العهد جنوبى جزيرة (أرقو) . ومن جهة أخرى يمكن اعتبار وجود بعض أشكال زنوج في مناظر لأهالى (ثيمو) ، وهم

يقدمون الجزية في معبد (الدير البحرى)، بمثابة رمز على علاقة ودية مع الأقطار الجنوبية •

تحتس الثالث : بعد أن فرغ من حروبه الآسيوية وجه همه الى بلاد

النوبة فسار على رأس حملة الى بلاد السودان • ويحدثنا نقش عند الشلال مؤرخ بالنسبة الخامسة من حكمه بنفس الكلمات التى ذكرت في نقش (تحتس الاول) وهى أنه « حفر قناة عند الشلال الأول ، لأنه وجدها مملوءة بالحجر » •

وكانت الجزية المفروضة على (كوش) و(واوات) تصل بانتظام الى مصر • فضلا عن ذلك نقش هذا الفرعون على بوابة بمعبد الكرنك قوائم بأسماء أهالى الجنوب ، الذين انتصر عليهم •

هذا ونعلم من اللوحة التى عثر عليها (رزنر) فى جبل (برقل) للملك تحتس الثالث ، أن النفوذ المصرى كان فعلا فى السنة السابعة والأربعين

من حكم هذا الفرعون ، يمتد الى هذه الواقعة تحت الشلال الرابع • وفى هذا المكان الذى وصلت اليه الحدود — وكان الشلال الرابع يعد

نقطة الحدود — التى كان من السهل حمايتها ، كما كان من غير الممكن التغلب عليها أيضا • ولذلك بقيت منطقة (ناتا) الواقعة بالقرب من (جبل برقل)

مدة مائة سنة تقريبا مركز الحدود المصرية • ولم يمتد ملك الفراعنة بعد هذه النقطة فقط • وأصبحت هذه المنطقة محط التجارة ، حيث لعبت دورا

هاما فى جميع المحاصيل الجنوبية وتصديرها الى الامبراطورية المصرية • وبوفاة تحتس الثالث فرح سكان بلاد النهرين وشمال فينيقيا وظنوا

أن الفرصة قد سنحت للشورة على مصر ، لاسترداد استقلالهم ولكن خلفاء هذا الملك العظيم ، ساروا سيرته فى الحزم ومضاء الغزيمة فقبضوا على

الثورات ، وأعادوا الأمن والهدوء الى الامبراطورية الآسيوية ، وكذلك أخذت الجيوش المصرية القلائل التي كانت تحدث من وقت لآخر في بلاد النوبة ، فتوطد نفوذ مصر في تلك الجهات .

أمنحتب الثانى : (١٤٥٠ ق م) : كان هذا الفرعون هو آخر من

وسع رقعة البلاد المصرية وثبت حدودها من الجهة الجنوبية . وبذلك يعد عصره نهاية الفتح السياسى فى هذه الجهة . ولذلك نجد أن الحملات التى قام بها الملوك الذين خلفوه لم تكن حملات لمد حدود مصر ، بل كانت حملات تأديبية فى وادى النيل على بدو الصحراء الذين كان لا غرض لهم الا النهب والسلب من الأهالى .

وأول ملك قرن اسمه ببلاد السودان بعد تحتمس الثالث هو ابنه أمنحتب الثانى ، غير أنه ليست لدينا نقوش أو مناظر تحدثنا عن قيامه بمشاريع حربية فى هذه البلاد . وكل ما نعرفه عنه هو ما جاء فى نقشين موحدين من حيث الألفاظ . فقد جاء فيهما : « أن الملك بعد أن جاء من حملته فى آسيا قتل سبعة أمراء من أهل (نحصى) ، وعلق ستة منهم على جدران طيبة ، فى حين أن السابع قد أرسل الى (نباتا) فى تاستى (بلاد النوبة) وعلق جسمه على جدرانها » .

هذا وقد وجد لهذا الملك تمثالان صغيران فى (بن نجا) و(وادى بانجى) الواقع بين الخرطوم و(مروى) ولاشك أنهما قد نقلتا الى هذا المكان . وعلى ذلك ليس هناك أى أساس للرأى القائل : أن سلطان مصر قد وصل فى عهد أمنحتب الثانى الى ما بعد الشلال الرابع .

ولهذا الملك فوق ذلك آثار عدة فى بلاد النوبة .

أمنحتب الثالث : (١٤٠٥ — ١٣٧٠ ق م) : كانت سياسة تحتمس

الرابع سلمية مع أهل الجنوب ، وتدل النقوش والآثار المكشوفة على أن عهد الملك أمنحتب الثالث ، الذي خلفه ، كان كله عهد سلام ومهادنة ولم تكذ تحدث فيه حروب ، اللهم الا حملة ارسلها الى بلاد كوش ، والأخبار التي استقينها منها أخبار هذه الحملة هي : لوحتان ملكيتان على الصخور في الطريق بين أسوان والفيلة . وتاريخ هذه الحملة كانت في السنة الخامسة من حكمه ، وكان من نتائجها أن عاد املأن الى فصابه .

ووجد على بعض الصخور بسمنة كتابة يدل على ان الملك توغل بجيوشه في أثيوبيا ، وأسس من أهلها ٧٤٠ نفسا . كما بنى هيكلًا في نبتة ووضع أمام يابه صفين من الكباش الرابضة على هيئة أبي الهول . ويوجد في صلب آثار هيكل من بناء هذا الملك .

أمنحتب الرابع أو اخناتون : (١٣٧٠ — ١٣٥٢ ق م) : لقد وجه هذا

الملك كل اهتمامه للمسائل الدينية ، فلم يقيم بأيقلمة حرية في المستعمرات المصرية الآسيوية ، حيث كانت الأحوال تدعو لذلك ، ولا في الجنوب أيضا ، ومع ذلك لم يضعف سلطان الحكومة المركزية في بلاد النوبة بأية حال من الأحوال ، ولم تخرج أية بقعة من بقاع النيل عن دائرة سلطانه ، كما يدل على ذلك صراحة ماحدث من مجواسم الاله (آمون) ، وصور الاله في كل أنحاء بلاد الوادئ حتى (جبل برقل) . وكذلك فان اسم نائب الملك في عهد هذا الفرغون . كان موجودا حتى الحدود الجنوبية . يضاف الى ذلك النشاط الذي أظهره هذا الفرعون في البناء والتعمير في الجنوب ، فانه يعد بمثابة تطور في العلاقات السلمية أكثر من قبل : ففي (سمي) التي أقام جدار مدينتها يوجد معبد صغير للاله (آتون) ،

وكذلك توجد مناظر في معبد (صلب) باسمه . وقد وجد في (سدنج)
جعران باسم هذا الملك .

كل هذا يدل على ان بلاد النوبة كان يسودها السلام والنظام ولم نجد
أى متن يحدثنا عن حملة حربية ضخمة لقمع أية ثورة هناك .
حور محب : وفي العصر الذى تلا عهد اخناتون نجد أن حور محب قد
لعب دورا سياسيا عظيما . وكان فى عهد حكم (توت عنخ آمون) . وهو
القائد الحقيقى للسياسة الخارجية والسياسة الداخلية معا . وقد قبض
على زمام الحكم فى القطرين عدة سنين .

« وقد حضر رجال البلاد منجنين أمام باب القصر وامراء البلاد الاجنبية
من الجنوب والشمال قد أتوا بأيديهم مرفوعة مادحين اياه كأنه اله ، وكل
شئ يطلب عمله كان يعمل على حسب امره » .

وفى عهد توت عنخ آمون قد اقيمت بلدة جديدة أو على الأقل أسس
معبد فى (فرس) . وخصص لعبادة الفرعون ، وقد كان النظام فى بلاد النوبة
سائدا ، وكانت رحلة حور محب الى بلاد النوبة . تمليها سياسة الدولة الداخلية
ولعل هذه الرحلة التى قام بها حور محب ، المدبر لأمور الدولة ، كانت
رحلة تفتيشية ، ليطمئن على اخلاص موظفيه فى عملهم فى بلاد النوبة .
والواقع أن بلاد النوبة بثروتها الغنية ، كانت تلعب دورا هاما فى سياسة
مصر الداخلية ، وبخاصة فى الاوقات المضطربة اذ كانت فى أوقات الحرب
مليئة بالاحزاب الكبيرة . فاذا كان نائب الملك وموظفوه ، وكذلك السيطرة
على موارد المواد الغفل فى الجنوب وبخاصة مناجم الذهب العظيمة فى يد
الفرعون . فان ذلك يكون سببا فى الانتصار على عناصر الدسائس فى
سياسة البلاد الداخلية ، والقبض على زمام الموقف .

ولما اعتلى حور محب عرش البلاد (١٣٥٠ ق م) قام بحملة على بلاد

كوش • ومن المحتمل أن هذه الحملة لم تكن الا مجرد مظاهره قام بها رجل أعلن نفسه ملكا على البلاد ، ولم يكن لديه سند شرعى يدعى به تولى الحكم •

وقد دون خبر انتصاره فى هذه الحملة على الغار الكبير فى جبل السلسلة شمال أسوان حيث ترى صورته على شكل مقاتل حاملا على كتفه فأساكأنه يلتمس من الاله (أمنرع) دوام حياته وتأييد نصرته على أهل الجنوب •
رئيس الأول : تولى الحكم بعد حورمحب ، ولم نعرف العلاقة بينهما ،

ويعدده المؤرخون مؤسس الأسرة ١٩ • ولرئيس الأول هذا معبد فى (بهين) أقامه هذا الملك وجهزه بالكهنة •

ولما خلفه الملك سبتى الأول ، قام هذا بحملة حربية على اقليم (أرم) ولكنها ليست ذات أهمية تذكر •

رئيس الثانى : ويعتبر هذا الملك هو المؤسس الثانى للامبراطورية المصرية بعد الملك تحتمس الثالث ، ولدنا فى عهد هذا الفرعون مادة كثيرة ولكنها على الرغم من غزارتها لا تقدم لنا شيئا يذكر عن الجوادث التاريخية الخاصة ببلاد النوبة : فلا نجد فى المناظر العدة الدالة على حروب نوبية ، ما يمكن ان نستخلص منه تاريخا معيناً أو مكانا معروفا وقعت فيه حروب بوجه عام •

والرسوم الخاصة بالمناظر الحربية نجدها فى ثلاثة معايد هي : أبو سمبل ، وبيت الوالى ، والدر (شكل ١٠) •

وفى بلدة العمارة القديمة عشر حديثا على مناظر فى داخل البوابة لها قيمتها الأثرية ، وهى من عهد رئيس الثانى • فعلى الجدار الجنوبي نجد منظر يمثل

هذا الفرعون يهجم بعربته على مجموعة من النوبيين ، وعلى الجدار الشمالي صورت عودة الفرعون منتصرا . ومع ذلك نجد متنا قصيرا مؤلفا من سطين ، سجل فيه أن الحملة قد وجهت على أرض (أرم) النوبية وبه ما يزيد على سبعة آلاف أسير . وهذا المتن القصير يعد أول سجل معروف لدينا عن حملة قام بها رمسيس الثاني على بلاد (أرم) . بل الواقع أن هذه الحملة تعد أول حملة حقيقية تاريخية لهذا الفرعون في بلا النوبة ولرمسيس الثاني هيكل آخر منحوت في صخرة في الدر أقامه لعبادة الاله (رع) وذكر فيه أيضا انتصاراته على الأثيوبيين .

وله هيكل من الحجر الرملي الصلب في السبوع قوعليه صورته يقدم البخور للاله آمون وهو يقول له : « لك أعطى كل القوة وأعطيك العالم بسلام » . وفي أسفل جدران بعض الغرف أسماء أولاد رمسيس وعددهم ١٧٨ نفسا . ومن أعماله انه جدد استخراج الذهب والزمرد من وادي العلاقي . وهناك آثار قلعه يظن أنها من عهد رمسيس الثاني ، وان القديما كانوا يذهبون منها الى ذلك الوادي .

ومن مبانيه كذلك في هذه البلاد هيكل (أبو سمبل) على بعد ١٧٠ ميلا من الشلال الأول ، وله هيكل في نبتة لاتزال بقاياها الى الآن ، وهو أقدم هياكل تلك المدينة (شكل ١٠ ، ١١)

مرنبتاح : وبعد عهد رمسيس الثاني نجد التحدث عن المواقع الحربية قد أخذ في النقصان . ففي عهد مرنبتاح خلف رمسيس الثاني وابنه نعرف فقط لوحة واحدة مهشمة في عمدا (شكل ١٠) ، وهي تحدثنا عن اخماد ثورة في (واوات) . وحاول هذا الملك جهده في المحافظة على الامبراطورية .

واضطرت هذه السياسة الى ارسال حملات تأديبية الى بلاد الشام وأخرى
لصد الليبيين من الغرب .

رئيس الثالث : ويعتبر المؤرخون مؤسس الأسرة العشرين وقد عثر

لهذا الفرعون على معبد كبير في مدينة (هابو) . وعلى جدران هذا المعبد
نجد صور حرب نوبية قد مثلت في ثلاثة مناظر ، وخلافا لذلك نشاهد
قائمة طويلة منقوشة بأسماء أهل الجنوب المغلوبين على الجانب الأمامي
للبوابة الأولى بالمعبد ، لكن هذا لا يكاد يكون له قيمة تاريخية لانه لا
يثبت على وجه التأكيد قيام حملة حربية نحو بلاد النوبة . وهذا يعنى أن
رئيس الثالث لم يقم في مدة حكمه بأى أعمال حربية في الجنوب . والواقع
أن بلاد النوبة — من الآن لمدة طويلة — لم تعد بلادا أجنبية لها ثقافة مميزة
بل كانت تعد جزءا من المملكة المصرية مرتبطة بها ارتباطا وثيقا لدرجة أن
شخصيتها من حيث الثقافة والجنس قد فقدت .

عوامل ضعف الامبراطورية : وهذا الفرعون استطاع أن يحافظ على

تراث أسلافه ، فصان الامبراطورية من الضياع ، وحطم المحاولات ، التي
بذلها أعداء مصر لغزوها وابتلاع أملاكها . ولكن هذه الانتصارات اللامعة
لم تستر عوامل الضعف والانحلال ، التي كانت كامنة في جسم مصر منذ
بمن طويل ، فلما تقدم رئيس الثالث في السن ، وبدأ عليه الضعف أخذت
العوامل في الظهور . وكان الكهنة العامل الأول ، فيما أصاب مصر من ضعف
وانحلال ، اذ كانوا على درجة كبيرة من الثراء . وبينما كانت مصر كلها تن
من كثرة ما أتقنه الملوك في حروبهم وخفلاتهم واقامة مبانيهم ومعابدهم ،
كان الكهنة وحدهم يتستعون بالثروة والجاه . وأخذوا يتدخلون في الأمور
السياسية والجيش الذي كان فيما مضى عدة مصر ، وأداتها في الفتح والغزو ،

أصبح الآن سببا جديدا من أسباب فساد الحال في مصر وضعفها ، إذ أصبح قوامه الجنود المرتزقة ، وهؤلاء جميعا كانوا على استعداد أن يولوا ثقتهم كل من يجزل لهم العطاء ، ويفرقهم بالمال . وخلف رمسيس الثالث بعد ان حكم ٣١ سنة ، ملوك تسعة حكموا مددا قصيرة .

وقد عثر الأثرى (مريت) ١٨٧٦ على حجر في شونة الزيب بالعرابة المدفونة في مصر كتب عليه : أن الملك رمسيس الثاني عشر (آخر ملوك الأسرة ٢٠) أصدر أمره الى (بيانحاس) حاكم الأثيوبيين ، ورئيس الامم الاجنبية التابعة للدولة المصرية يقول فيه : « أتذت اليك مستشاري بكتاب ضمنته أوامري ، فعند وصوله اليك ساعده على انجازها بالحسنى . لأنه هو المكلف باتمامها . وعليك أن تلاحظ تواييت (المعبودة) وتضعها في سفينة وتأتي بها معه الى المكان الذي أعد لها . واحضر معك الأحجار النفيسة للصناع ، واحذر من التأخير في انجاز هذا الأمر والا خلعتك » .

ومع ذلك فقد كان هذا الفرعون ومن سبقه ضعاف اعتمدوا اعتمادا كلياً على الكهنة ، حتى صار كبير الكهنة آمون يجمع الى جانب سلطته الدينية نفوذا سياسيا واسعا ، فأصبح قائد الجيش وأمين الخزانة ، بل اتخذ لنفسه لقب حاكم كوش .

واستطاع الكهنة بعد موت رمسيس الثاني عشر أن يحكموا البلاد . فقد اعتلى « حريحور » كبير الكهنة العرش ، وظل الكهنة يحكمون البلاد حوالي ١٥٠ سنة ، وفي عهدهم انكشبت الامبراطورية المصرية وفقدت مصر سلطانها على أمراء سوريا وفلسطين ، ولم يبق لها من أملاكها الواسعة سوى بلاد النوبة .

١ - ادارة بلاد النوبة في عهد الدولة الحديثة

كان فراغة الدولة الحديثة يولون نوابا لادارة بلاد السودان ، وكانت منطقة الأراضى ، التى يسيطر عليها نفوذ نائب الملك تختلف باختلاف الازمان بعض الشئ ، وكانت غالبا تنحصر بين « نخن » وجبل برقل ، وقد كان نائب الملك بوصفه أعلى موظف هو المسئول قبل كل فرد عن توريد جزية اقليم النوبة تلك الجزية التى كان يتوقف عليها عظمة الفرعون وسلطانه ، اذ كانت تعد مصدرا هاما لمصر ، ولا نزاع فى أن هذه الاتاوة كانت تتطلب ادارة فنية حازمة من النائب ، ومع ذلك فاننا نجد من بين كل النواب الذين عينهم الفراغنة فى هذا المنصب الخطير ، من كان صاحب قدرة خاصة فى الادارة .

وتدل شواهد الاحوال على أن وظيفة نائب الملك ، كانت تنتخب من دائرة المقربين لدى الفرعون ، ذلك ليوثقوا العلاقة بين بلاد النوبة وبين الملك ، وكذلك ليكون الملك على ثقة من أن الموظفين النوبيين مخلصون ، هذا ولم يكن لكل نائب ملك مجال حياة مرسومة ، بل كان الملك ينتخب النائب على حسب قدرته ومعرفته ، للموظيفة التى كان ينتخب ليشغلها . فمن الجائز - كما يظهر - أن كل موظف كبير يبرهن على أنه أقدر من غيره فى جمع الضرائب ، كان ينتخب لشغل وظيفة نائب الملك ، وتدل ظواهر الأمور على أنه كان حرا فى وظيفته ، وليس مسئولا أمام أحد غير الملك .

واذا كانت جزية بلاد النوبة تصل الى مصر بواسطة موظف آخر ، فليس معنى ذلك أن نائب الملك كان تحت ادارة هذا الموظف ، او انه مسئول أمامه ، والواقع أن نائب الملك كان مسئولا أمام الفرعون عن

احضار الجزية شخصيا ، وتدل النقوش على ان هذه الجزية ، كانت تقدم أمام الفرعون في أغلب الأحيان باحتفال عظيم .

وكان نائب الملك يسيطر على طائفة كبيرة من الموظفين ، يستطيع بعونهم تأدية أعماله ، وواجباته ، وأهم واحد بين هؤلاء الموظفين هو قائد جيش الرماة لكوش وهو الذى كان على رأس الجنود الذين فى خدمة نائب الملك . هذا بالإضافة الى وكيلين للنائب ، يقوم واحد منهما على ادارة بلاد (واوات) والآخر على ادارة (بلاد كوش) . وكان اقليم (واوات) يمتد من أسوان حتى الشلال الثانى . والاقليم الثانى يمتد من الشلال الثانى حتى الشلال الرابع تقريبا . على ان التزامات كل موظف من هؤلاء بالنسبة للآخرين وتحديد نفوذه تماما يصعب معرفتها . وفضلا عن هؤلاء الثلاثة الموظفين الكبار ، وكان يوجد عدد عظيم من صغار الموظفين ، وتدل شواهد الاحوال على ان الادارة كانت فى تكوينها كالادارة المصرية نفسها فى تلك الفترة .

وكان معظم هؤلاء الموظفين ، الذين يعملون فى بلاد النوبة من المصريين ، ولكن كان بينهم نوبيون متمصرون حتى فى أسمائهم .

وبجانب الوظائف هذا كان يقوم الأمراء النوبيون ، الذين يوجدون فى بقاع مختلفة بتمثيل دورهم ، فمثلا نجد فى عهد الملك (توت عنخ آمون) كيف أن أمير (معام = عنبية) ، والأمراء الآخرين من (واوات) يظهرون على رأس اتباعهم فى البلاط الفرعونى عند تقديم الجزية .

ولا نعرف بالضبط الدور الذى كان يقوم به هؤلاء الأمراء . وقد رأينا من قبل أن الملك تحتمس الاول قسم بلاد النوبة خمسة أقسام ، ووضع على رأس كل منها أميرا نوبيا . ومن ثم ترى أن المصرى ، كان يجرى وراءه الإبقاء على

هذه العلاقة طالما يقدم هؤلاء الأمراء الجزية ، والولاء للفرعون . وكانوا بطبيعة الحال تحت سلطان نائب الملك صاحب كوش ، ونائبيه . وقد كان كل منهم يسعى للحصول على استقلاله السياسى ، يصيبه القهر والكتب ، ويناله العسف ، ومع ذلك فقد ظل فى أيدى هؤلاء الأمراء بعض النفوذ السياسى . فهم الذين كانوا يعدون القوة المعيرة ، التى تقوم بالثورات فى بلاد النوبة، وكان لهم أحيانا اتصال بقبائل النوبة الاحرار .

واقضى هذا النظام لحكم النوبة أن يأخذ الفرعون عنده فى مصر أولاد هؤلاء الامراء ليكونوا بمثابة رهينة . وهناك يربون تربية مصرية خالصة فكانوا يربون فى البلاط الملكى مع أولاد الملك والأمراء .

وتدل تنشئة أولاد الامراء النوبيين فى البلاط مع رؤسائهم فى المستقبل على أن المصرى لم يكن مسلكه فى بلاد النوبة مسلك سياسة السلب والنهب ، بل كان يعيش معهم عيشة سلام ووثام . ولم يحاول المصرى قط ان يفنى النوبى ويقضى عليه . اذ لم نجد أبدا أنه أبعدا أسرة أمراء ووطنيين ، وقد كان ذلك من الامور التى يسهل اتيانها .

واقضى النظام الادارى لبلاد النوبة فى هذا العصر ، هجرة كثير من المصريين الى الأقاليم النوبية ، ليقوموا بتدريب أهل البلاد على طريقة الادارة المصرية ، فكثر تبعا لذلك عدد الجنود المصريين والموظفين والكهنة ، وهؤلاء هم الذين سكنوا البلاد ، وأقاموا فيها مؤسسات لأنفسهم ، غير أن هذه المؤسسات على ما يظن كانت منحصرة فى مراكز الادارة والحكومة . فى حين أن القرى والمساكن الأخرى ، كان يقطنها النوبيون الأصليون .

وقد رأى ملوك هذه الدولة الحديثة — تجنبا لثورات الأهالى — تمصير

هذه البلاد وطبعها بالطابع المصرى ، وهذا التصير لا يمكن ان يقوم الا اذا اختلط المصريون بأهالى هذه المنطقة ، لذلك نجدهم فى بلاد النوبة لسفلى يعيدون استعمال حصون الدولة الوسطى وذلك باعادة اصلاح الكثير منها ، وظهر هذا الاصلاح جليا فى حصون : ألفتين وكوبان وفرس وبهين (شكل ١٠) .

وكان يقوم فى بعض هذه الحصون مثل (ورتتى) و(سمنة) و(قمة) ، فى عهد الدولة الحديثة معابد لاقامة الشعائر الدينية ، بها ما يلزمها من الكهنة والخدم ، الذين كانوا يقيمون فيها . من ذلك أن تحتس الثالث بنى معبدا لآمون فى (جبل برقل) ، هو الواقع ان الاعمال الخريية . بعد نقل الحدود الى الجنوب . قد جعلت مستلزمات الدفاع تنتقل الى حصون أخرى أقيمت فى البلاد التى فتحت جديدا على ما يظن منذ تحتس الاول وهذه الحصون لم تكن مهتمها الدفاع ضد أهالى الجنوب وحسب ، بل كانت على ما يظن — لتكون مكان هجوم على أهالى الصحراء المغيرين ، أو لتهديئة قبائل البدو ، وممانعة من ان يثبت للعدو قدمه فى أى مكان يعوق المواصلات الى الجنوب ، ونعرف من بين الأماكن المحصنة فى هذه الرقعة خلافا لجزيرة (ساي) حتى الآن العمارة غرب ، وسدنجا ، وسى ، وصلب . وفى الجنوب على مسافة كبيرة تقع بلدة (كاوا) . وأخير تقع فى نهاية الحدود الجنوبية عند (جبل برقل) المقدس مدينة (نباتا) المحصنة ، « شكل ١١ »

ومن الملاحظ أن هذه المدن جميعها كانت تشابه فى طريقة بنائها وفى تكوينها ، وكل مدينة من هذه المدن كان يحوطها سور كبير ، وداخل هذا السور كانت توجد مساكن الموظفين والجنود . وفى وسط المدينة كان

المعبد يبنى من الحجر مختلفا عن بقية البيوت المبنية من الطين . وهذا المعبد نفسه ذا طراز واحد في كل المدن ، وان كان يختلف في حجمه من مدينة لأخرى ، أما المعبد نفسه فقد كان محاطا بسور من الحجر رسمت عليه صور الملوك المصريين في حروبهم الى جانب صور الآلهة المختلفة . ولم تكن هذه الجدران تقام لمجرد الزينة ، بل كانت تقام للمحافظة على كنوز المعبد وثروته من النهب ، والسلب ، وخاصة في عهد التدهور

وفي باب المعبد كان يوجد عادة برجان لمسكن الكهنة والموظفين ، وفي داخله يوجد مخزن الغلال الذي جمعت من الضرائب ، وكان الغرض من بناء المخزن داخل المعبد هو صبغ الضرائب بالصبغة الدينية ، أى إيهام الناس بأن هذه الضرائب هدايا أو قرابين للآلهة . وخلف هذا المعبد نجد صفا من الأعمدة تنتهى بالهيكل لدينى نفسه حيث يقيم الكهنة صلواتهم . وهذه المعابد لم تكن صغيرة بل نجد منها معابد ضخمة مثل معبد صلب الذى كان طوله ٥٥ قدم ، ومعبد آمون فى «جبل البرقل» . وغالبا ما كانت هذه المعابد تقام بالقرب من أراض خصبة ، ومراكز أهلة بالسكان . ومما هو جدير بالملاحظة ، أن المادة التى عثر عليها تبرهن على أن بلاد النوبة السفلى لم تكن بأية حال من الأحوال أرضا صحراوية ، فقد أثبت العالم الأثرى « فرث » وجود أماكن ، ومقاطعات خصبة فى بلاد النوبة كما يدل على ذلك نقش من « القرنه » يرجع الى عهد رمسيس الثانى . والدليل على ان الزراعة لم تنقطع فى تلك البلاد ، ماتحدثنا به النقوش هناك من ان الأرض الزراعية ، التى كانت موقوفة على عبادة تمثال رمسيس السادس ، وذلك بالقرب من عنبية ، تدل على وجود حقول كتان وحدائق

والمهم أن هذه المدن قد أدت مهمتها بنجاح فاعتاد سكان كوش على الحياة المصرية واستمروا مقلدين لها في كل شيء وهذا يفسر لنا طول المدة التي حكمها المصريون بدون ثورات .

٣ — حالة بلاد النوبة الاقتصادية في عهد الدولة الحديثة

سنحاول هنا أن نعطي صورة عن الحالة الاقتصادية لبلاد النوبة في هذا العصر معتمدين في ذلك على ما وجدناه مذكورا من المحاصيل الجنوبية على الآثار الحكومية والنقوش العادية من جهة وما نجده مثلا من جزية وبخاصة في مناظر المقابر الخاصة من جهة أخرى . ومما يؤسف له أن النقوش التي نجدها على المباني الحكومية لا تقدم لنا صورة حقيقة عن قوائم الجزية الفعلية . وعلى ذلك لا يمكننا أن نعطي فكرة عامة عن الجزية . فالواقع أن المناظر الخاصة بتوريد الجزية ، كانت تشير على نهج واحد ، وذلك أنه كانت تصور أمام الملك كرمة أنيقة التنظيم من السلع . ويقف الموظف الخاص بتقديمها أمام الفرعون ليقدم حسابها ويرى خلف الجزية المكدسة ، أمراء البلاد الذين كانوا يوردون هذه الجزية راكعين وكان هؤلاء الأمراء يميزون عن رعاياهم ، الذين كانوا يرتدون قمصانا قصيرة حاملين على أكتافهم منتجات بلادهم بملابسهم الشينة وزينتهم الفاخرة . ومن طريق الصدفة أننا عثرنا على أحد مناظر الجزية من عهد الملك أمنحتب الثاني في معبد قصر ابريم ، وقد وردت الكميات في صور رجال محملين بحاصلات الجنوب من الذهب وسن الفيل والأبنوس والفهود الحية وكلاب الصيد . . الخ .

وهذا وقد عثرنا على نقش آخر وجد على صخرة في (تومبوس) يرجع

الى السنة العشرين من عهد تحتمس الثالث . وقد دون فيه مقادير الجزية
من الأشياء الثمينة المختلفة الأنواع من كوش .
ومهما يكن من أمر فإن هذه القوش تقدم لنا صورة ناقصة مبهمة عن
الدور الذي كانت تقوم به بلاد النوبة في الحياة المصرية الاقتصادية ،
ولكن من الممكن أن نلاحظ أن الذهب كان أهم محصول في تلك البلاد .
وعرفت المقادير المعلومة ، التي كانت ترسل لصر في عهد الدولة الحديثة
كجزية سنوية . فعرفنا أن الضرائب النوبية من الذهب كانت قسيتين :
الضرائب التي كانت تجبي من (واوات) . والكمية الكبيرة كانت تجبي
من الاخيرة ، وهو الاقليم الذي يقع بين الشلال الأول والشلال الثاني
بما في ذلك طرقة الصحراوية ، التي تشمل على مناجم الذهب غنية في
(وادي العلاقي) شرقى (كويان) ، والاحصاء الذي بقى لدينا من مناجم
واوات هو :

ففى السنة ٣٤ من حكم تحتمس الثالث = ٢٥٥٤ دبنا = ٢٣٢ر٤ كيلوجرام
وفى السنة ٣٨ من حكم تحتمس الثالث = ٢٤٨٤ دبنا = ٣٥٨ر٨ كيلوجرام
وفى السنة ٤١ من حكم تحتمس الثالث = ٣١٤٤ر٣ دبنا = ٢٨٦ر١ كيلوجرام
وفى السنة ٤٢ من حكم تحتمس الثالث = ٢٣٧٤ر١ دبنا = ٢١٨ كيلوجرام
والمحصول السنوى من بلاد كوش أل بكثير من محصولى بلاد « واوات »
ويرجع السبب فى ذلك الى ان مناجم الذهب كان الوصول اليها صعبا
هناك . هذا الى ان طرق النقل الى مصر كانت اطول . ويلاحظ ان كثيرا
من الذهب ، الذى كان يستخرج من الاقليم الواقع فى الجنوب الشرقى
من الشلال الثانى لم يكن يستخرجه المصرى ، بل كان يقوم بتعديده الأهالى
من النوبيين . وكانوا يدفعون جزية لمصر . والذهب الذى كان يدفع جزية

على حسب ماجاء في تواريخ تحتمس الثالث من ادارة بلاد كوش هو .
في السنة ٢٣ = ١٥٥٢ دينا = ١٤١ ك.ج
في السنة ٣٤ = ٣٠٠ دينا = ٢٨٣ ك.ج
في السنة ٣٧ = ٧٠١ دينا = ٦٤ ك.ج
في السنة ٣٨ = ١٠٠ دينا = ٩١ ك.ج
في السنة ٤١ = ١٩٥٢ دينا = ١٧٨ ك.ج

هذا فضلا عن أن الاله آمون كان يحصل على مقادير من الذهب كهدايا من رعاياه في بلاد النوبة ، ففي عهد رمسيس الثالث وردت كمية من الذهب من بلاد النوبة الى الاله «آمون» تقدر ٢٩٠٨ دينا ، يضاف الى ذلك ٢١٧٥ دينا من الذهب النقي .

وفوق ذلك نجد من ضمن ما كان يقدم من الجزية بعض الصناعات اليدوية النوبية مثل الزهريات الفاخرة وكراسي ودروع وأقواس : وكراسي ذات ظهور . ويقول بعض علماء الآثار : « ان هذا يدل على ان هذه الحضارة ، وان كانت متأثرة بالحضارة المصرية ، الا أنها كانت في لبها سودانية الاصل . »

وتضع أمامنا الجزية التي صورت في مقبرة حوت فكرة التبادل، وما كانت عليه اليد العاملة النوبية من مهارة في ذلك العهد .
ومما تجدر ملاحظته كذلك الأشياء الفنية التي كانت تأتي من بلاد « واوات » ، بخلاف الأشياء الغفل التي كانت تأتي من بلاد (كوش)، ولعل ذلك يرجع الى ان (واوات) كانت أقرب جزء من بلاد النوبة الى مصر حيث كان يسكن كبار الحكام الذين يميل ذوقهم الرفيع الى المنتجات الدقيقة

وان هؤلاء الحكام كانوا يسعون في تحسين الصناعات المحلية عند السكان .
ومن ضمن الجزية كذلك لاحظنا في عهد الملك حتشبسوت وصول
عربة كبيرة من الخشب (خشب السنط) ، من بلاد كوش مشغولة بالذهب
كما حدث في عهد تحتمس الثالث توريد أشياء من خشب (كوش) ، وقد
عمل نجارتها جنود كوشيون عديدون هناك . هذا فضلا عن ورود بعض
المواد المعدنية والنباتات الملونة بالألوان الحمراء والخضراء والزرقاء في
هيئة كتل .

وكان كل من خشب الأبنوس ، وسن الفيل ، والعطور ، والبخور ، الذي
كان يورد لمصر من بلاد النوبة منذ الدولة القديمة يتدفق على مصر في عهد
الدولة الحديثة بكثرة . ولعل بعض هذه المواد كانت تأتي عن طريق
تجاري غير مباشر ، من أقاليم تقع جنوبي الحدود المصرية . فكان العاج
يجلب أسنانا ، وخشب الأبنوس يجلب كتلا .

وفي تواريخ حروب تحتمس الثالث ترى أن العاج والأبنوس ، كانا
يوردان بوجه عام بصفتها جزية فقط من (كوش) .

وتحدثنا لوحة وجدت في (جبل برقل) التي أقامها تحتمس الثالث في
(نباتا) أنه كان يرسل من الجنوب خشب السفن المعد للتركيب ، وكان
هذا الخشب من الدوم والسنط . ومن الجائز كذلك ان مانجده مذكورا
في قوائم الجزية في تواريخ تحتمس الثالث من السفن المحملة بالمحاصيل
من السودان كل سنة يصنع هناك ويقدم بوصفه جزية .

هذا ولدينا نوع آخر من الواردات من الجنوب تجده مذكورا في جزية
النوبة ، واعنى به ريش النعام وبيضه . وكان الريش يستعمل حلية في
لباس الرأس ، وفي صنع المراوح . وكان البعض يستعمل لصبغ الخرز منذ أقدم
العهود حتى الأسرة ١٨ بكثرة . وكانت مصر تهتم بقشر البيض هذا ، لأنه

كان يمثل سلعة هامة في تجارة الأراضى الشمالية . وعلى ذلك كان الجزء الأعظم من واردات بيض النعام الآتى من الجنوب ، يصدر ثانية الى الشمال ومن المواد التى لاتخلو منها السلع ، التى كانت تقدم جزية للفرعون الفهود وجلودها . التى كانت تأتى من بلاد (كوش) . فالعهد الحى كان يستعمل أحيانا للفرجة وأحيانا يدرّب على الصيد والقنص ، وأما جلده فكان يستخدم نوعا من الملابس للكهنه .

كذلك الزراف والقردة ، وكلاب الصيد والماشية . وجدت من بين السلع الخاصة بالجزية . لكن مما يؤسف له أن المناظر التى وجدت على الآثار لاتقدم لنا الانماذج من المحاصيل المختلفة ، فلا نتظر منها أن تعبر عن مقدار الجزية ولكننا استطعنا أن نلحظ من الاحصاء ، أن عدد المواشى التى وردت من كوش ، كان أكبر من التى وردت من واوات ، وذلك فى عهد تحتمس الثالث ولا نستطيع أن نرجع ذلك الى نشاط فى تربية المواشى حدث فى كوش ، أو الى سبب آخر ، ومع ذلك فإن هذا الاقليم الشاسع ، لا بد أن يكون معدل عدد الحيوان فيه على ما يظهر عظيم من حيث النسبة المئوية . وعلى اية حال فإن نقطة الارتكاز فى هذه المحاصيل كانت فى الجزء الجنوبى من الاقليم السودانى .

وعلى ذلك نرى أن المصرى بضمه هذه البلاد الجنوبية ، أصبح فى يده ما يسيطر به على احتكار التجارة التى كانت هامة للبلاد الشمالية . ويضاف الى ذلك المبادلات التجارية المصرية ، المحاصيل الشينة مثل الذهب ، والمحاصيل الخاصة بافريقية مثل السن وخشب الأبنوس ، ومنتجات النعام أى ريشها وبيضها . ومن ثم أصبحت لمصر مكانة ممتازة فى شرقى البحر المتوسط ، لا بفضل محاصيلها الخاصة فحسب ، بل كذلك بالدور الفاصل ،

الذى كانت تقوم به موارد الثروة الغنية ، التى كانت تستولى عليها من بلاد النوبة .

٤ - آلهة بلاد النوبة

ان ثالوث الآلهة الذى يعبد فى جهة الشلال الاول وهم : خنوم وسانت وعنت ، يصادفنا فى عهد الدولة الحديثة فى مناظر الشلال الثانى فى (بهين) فنجد أن الآلهتين الأخيرتين تقومان بدورهما الهام هنا باسم سيدتى الفتين الجنوبية ، وكذلك نجدهما بنفس اللقب فى معبد « فرس » ونجد الاله « خنوم » يظهر فى جرف حسين والدر وأبوسمبل وصلب ، غير أنه لا يظهر بوصفه الاله الرئيسى ، كما هو الحال فى « قمة » « شكل ١٢ » أما الآلهة الرئيسية فى المعابد النوبية . فكانت آلهة الدولة فى مصر فكان « آمون رع » مثلاً فى « نباتا » هو الاله الرئيسى ، وكذلك فى أبى سمبل كان « آمون رع » يسمى سيد عرش الأرضين ، والذى يسكن الجبل المقدس فى « نباتا » ونجد الآلهة ، الذين كانوا يسمون باسم « حور » فى « واوات » ، يلعبون دوراً هاماً فى بلاد النوبة السفلى . فالاله « حور » رب « تاستى » ، كان يأخذ اشكالا مختلفة فيها ، وفى أماكن أخرى كثيرة فى بلاد النوبة السفلى « شكل ١٢ »

ومما يطيب ذكره هنا أن عبادة الحاكم أو الفرعون ، كانت تلعب دوراً عظيماً ، وكانت هذه العبادة مباشرة خلافاً لما كان فى مصر ، اذ كانت عبادة الآلهة مرتبطة بالأحوال السياسية . فعندما قدس تحتسب الثالث ، الملك سنوسرت الثالث بوصفه الاله الخاص ببلاد النوبة ، دل ذلك على مناهج سياسى ، كما هو الحال غالباً فى بناء ديانة الدولة . ومن المحتمل ، أن هذا



الهن



الهن



حنوم



صور

بعض آلهة بلاد المنوبة

العمل لم يكن تجديدا من الملك تحتس الثالث ، بل كان احياء للماضى ، وذلك لأنه قد وجدت طوابع أختام فى (ورنرتى) باسم (سنورت الثالث) من بعد عهد الأسرة ١٢ • ومن أجل ذلك يعتقد الأثرى (رزنى) ، أن تحتس الثالث لم يأت بجديد ، بل أحيا الماضى • ومن هذه الوجهة يمكن أن تفسر بوضوح أن (سمنة) و (ورنرتى) • كاتتا من الأماكن الهامة بعبادة هذا الاله •

وقد خطأ أمنحتب الثالث خطوة الى الامام ، فأسس فى (صلب) عبادة لصورته الحية على الأرض • وقد أقام لزوجه المؤلهة معبدا فى (سدنجا) • ولم يكن لها محليا كالألهة الآخرين ، بل كان لها حاميا لكل بلاد النوبة ولا نعلم أنه فعل ذلك لكى يقوى من سلطانه السياسى فى تلك البلاد ، أو كان الغرض حب الظهور ، الذى كان يبحث وراءه أمنحتب الثالث • هذا ولم يقف أثر هذا الفرعون فى هذا الاتجاه الكثيرون من أخلافه ، ولم نكد نعرف من هؤلاء الا « توت عنخ آمون » ، الذى على ما يظهر أله نفسه مدة حياته فى (فرس) •

ورمسيس الثانى لم يقتصر على أن يقيم لنفسه معابد بل تعدى ذلك الى اغتصاب آثار كبيرة ، من آثار أسلافه ونسبها لنفسه • وهناك نجد أن الاله هو صورته (أى صورة رمسيس) الحية على الأرض • وهذه الصورة وجدت فى معابد (السبوع) و (جرف حسين) و (أبو سمبل) و (أكشه) (شكل ١١) •

٥ - خدمات أهل النوبة في مصر

عندما أصبحت بلاد السودان جزءا لا يتجزأ من مصر في عهد الدولة الحديثة ، أخذ الفراغنة يسوقون أعدادا غفيرة من هؤلاء النوبيين الى مصر ، ويستغلون الرجال منهم في زرع الأرض وغسل الذهب . اما النساء فكن يعملن غازلات أو ناسجات .

وكان أكثر خدمة النوبى بوجه عام يستخدم في فرقة الرماة ، كما كان يستعمل جنديا يحمل الدرع ويسوق العربة . وكان يمتاز الجندي النوبى بملابسه فكان يلبس قميصا مصرية ، لا يختلف عن غيره من الجند المصريين ، الا انه كان يضع على رأسه ريشة ، وأحيانا كان يلبس قميصا طويلا له هداية من الامام . كذلك كان يمتاز بالوشاح ، الذى كان يتشج به على كتفه ، والقرط الكبير الذى كان يتطلى به . وهذا اللباس نشاهده ثانية في عهد (توت عنخ آمون) ، كما نشاهده في عهد الرعامسة .

ولم تكن أعمال رجال الشرطة من النوبيين قاصرة على حفظ الأمن والنظام ، بل كان لهم كذلك نشاط في جمع الرديف والضرائب . وقد وجدنا في نقوش رئيس شرطة (طيبة الغربية) أنه فضلا عن عمله كان مكلفا بجمع أموال ضياع الملك . ونصادف كذلك نوبيين في مصر مقسمين طوائف عرفوا بأنهم حراس للملك . هذا فضلا عن وجود فرق نوبية في جيش الفرعون . وتدل الأحوال على أن معظم الجنود النوبيين ، كانوا أحرارا حتى اتناعلم من نقوش عصر الرعامسة المتأخر أو هؤلاء الجنود النوبيين كان

لهم عبيد ، وهذا ما يتفق مع الجنود الاحرار وحدهم .

وقد كشفت الآثار عن أفراد نوبيين ، كانوا يشغلون وظائف عالية في بلاط الفرعون . فقد كشفت مقبرة (ماى - جر - برى) في وادى مقابر الملوك التى ترجع الى عهد الملكة حتشبسوت . وكل الأشياء التى وجدت بها توحى بالتسليم بأنها مقبرة نوبى ثم ان مقبرته الغنية بمحتوياتها ، وماعرفناه من الوظائف الكبيرة التى شغلها . كل هذا يدل على أن هذا الشخص كان يتمتع بحظوة عند الفرعون .

وهنال أمثلة أخرى كثيرة نبين بوضوح أن مجال النوبى فى مصر قد هياً له فرصا واسعة ، أمكنه بها ان يتصل بالملك مباشرة ، ويصل الى أعلى مراتب الدولة ولا يمكننا القول بصفة قاطعة اذا كانوا النوبيون قد وصلوا الى هذه المراتب بطريق الاستثناء أو اذا كان هذا الأمر كثير الحدوث ، وبخاصة فى العهد المتأخر من تاريخ البلاد . والأرجح ان النوبى كان يتولى هذه الوظائف فى حالات كثيرة ، وبخاصة بعد أن أصبح متمصرا تماما ، ولا فرق بينه وبين المصرى نفسه فى كل الأحوال .

ونرى أن خير ما يختتم به الكلام عن عهد الامبراطورية المصرية فى السودان هو ما قاله الأستاذ مندور المهدي : « .. كان عهدا بلغت فيه بلاد السودان أقصى درجات رقيها .. ففى هذا العهد ازداد رخاء البلاد ، واتسعت التجارة بين البلدين ، وطبعت حضارة السودان بالطابع المصرى الخالص فى جميع مرافقها . وسنرى أنه عندما يكون النوبيون دولتهم يضعون أسسها على هذه الحضارة المصرية ، بحيث لانكاد نفرق بينهم وبين المصريين ، اذا استعملوا الكتابة الهيروغليفية والمعابد المصرية والآلهة . وقد أتى هذا الأستعمار المصرى (؟) بفوائد كثيرة لأهل بلاد السودان إذ

أثار الوعي القومي ونبه أهل السودان الى أهمية بلادهم وكثرة خيراتها ،
خصوصا لما رأوا المصريين يستغلونها ويشترون مناجم ذهبها . حتى لم
يعد غريبا أن يستغل أهل السودان أول فرصة سانحة للبحث عن
حقوقهم الشرعية واستقلالهم ببلادهم . وقد وجدوا الفرصة سانحة في
ضعف الامبراطورية المصرية فحرروا بلادهم وكونوا حكومتهم
الوطنية » .

الفصل الخامس

مملكة نبتة (بانا)

حالة مصر قبل الفتح النوبى

رأينا فى الفصول السابقة كيف زاد نفوذ الكهنة حتى تمكنوا من حكم مصر حوالى ١٥٠ سنة ، بعد وفاة الملك رمسيس ١٢ • وفى خلال هذه المدة تمكن اللوبيون أن يسيطروا نفوذهم بسهولة على الوجه البحرى ، بطريق المهاجرة السلمية • ومما ساعد على ذلك زيادة الجنود الليبية المأجورة بالجيش المصرى باطراد ، واستطاع قائد منهم يدعى « شيشنق » فى عام ١٩٤٥ ق م أن يقضى على الأسر الحادية والعشرين ، ويؤسس أسرة جديدة ، هى الثانية والعشرون •

وكان مقر حكومته ، بوسطة ، فى شرق الدلتا • ولما كانت البلاد فى حالة سيئة كان مجهود هذا الملك أشبه بمن بنى عسارة عظيمة بأقراض عتيقة • وكان الوجه القبلى فى هذا العهد منقسما إلى امارتين : امارة اهناس الواصلة إلى أسبوط جنوبا ، وامارة طيبة الممتدة من أسبوط شمالا حتى الشلال الأول جنوبا ، ويرجع أنها كانت تشمل النوبة أيضا • وعليه فقطرا هذه بحاله سهل شبوب الفتن فى اماراته الثلاث فى أى وقت بمجرد زوال سلطة قائده الأعلى الشديد ألا وهو « شيشنق الأول » الذى تمكن من اعادة نفوذ مصر إلى فلسطين •

ولما توفى شيشنق سنة ٩٣٠ ق م خلفه ابنه أو سركن الأول ، الذى أخذ يوطد نفوذه فى كل البلاد تارة بالهدايا والتبرعات للمعابد ، وتارة اخرى ببناء القلاع الحصينة •

ولا جدال في أن الحكام الليبيين تطبعوا تماما بالطباع المصرية ، فبالرغم من احتفاظ الحكام الليبيين بأسمائهم الأصلية فانهم حافظوا على الألقاب والعادات الفرعونية التي ألفها المصريون لمدة تقرب من ألف وخمسمائة سنة وعبد الليبيون المعبودات المصرية وقدموا لها القرابين كالمصريين ، وذلك رغم أنهم من البربر وأنهم شديدو المخالفة للمصريين . وليس أقوى برهاننا على تطبع هؤلاء القوم بالطباع المصرية من الحوش العظيم الذي شيده أسركن الثاني بتل بسطة احتفالا بمرور ثلاثين عاما على تعيينه وليا لعهد المملكة المصرية جريا على عادة المصريين القدماء ، وفي أواخر الحكم الليبي لمصر انقسمت البلاد الى عدة امارات صغيرة مستقلة من الوجه البحرى شمالا الى الأشمونين جنوبا ، أى أن حالة مصر رجعت الى ما كانت عليه قبل الأسرات و شاء القدر أن يعتلى عرش مصر قوم أجانب آخرون هم الأثيوبيون .

٢ - سيادة أثيوبيا على مصر :

استمرت مصر تحكم النوبة مدة تنيف على ألف وثمانمائة سنة . أما ما بين الشالين الأول والثاني فبقى تحت الادارة المصرية مدة تقرت من ألف سنة . وقد تقدم القول بأن تلك البلاد انصبغت بالصبغة المصرية تماما . فشييد بكل مدينة فيها معبد مصرى عظيم ، وعبدت بها المعبودات المصرية في عهد رمسيس الثاني وبالرغم من محافظة أهالى النوبة على لغتهم فإن اللسان المصرى صار اللغة الرسمية وقتئذ بتلك البلاد ، وازداد انتشاره بين الأهالى بزيادة هجرة المصريين اليها .

ومنذ ذلك الحين فقه النوبيون الى أهمية بلادهم وكثرة خيراتها لما رأوا المصريين يثرون أعالى النوبة الخصبة ، ويستغلون مناجم الذهب بأسفل النوبة . زد على ذلك أن موقع بلادهم الجغرافى . على الطريق التجارى

العظيم بين مصر والسودان أو ضح للنوبيين ، مع الأسباب السالفة ، عظم شأن بلادهم ، فأخذوا يبحثون عن حقوقهم الشرعية فيها ، ويلاحظ أن الغارات العرضية التي شنها زنوج افريقية وغربى الصحراء الشرقية ، على النوبة ، لم تؤثر مطلقا في نمو البلاد ورفيها اقتصاديا والمعروف أن شيشنق الأول حافظ على النوبة ، كما ورد أن رئيس كهنة آمون ، وهب الى آمون ذهب النوبة ، ولذلك يرجح أن اقليم الشلالات استمر تحت النفوذ المصرى حتى منتصف حكم الأسرة الثانية والعشرين (أى حوالى سنة ٨٥٠ ق م) . وكانت بلاد النوبة على اتصال تام بطيبة ومعبد آمون لمدة طويلة من الزمن ، مثال ذلك معبد آمون كان صاحب الحق فى مناجم الذهب النوبية ، التى سميت وقتئذ « أرض آمون الذهبية » ابتداء من نهاية حكم الأسرة ١٩ . وفى أواخر الأسرة العشرين ، أصبح رئيس كهنة آمون حاكما على لنوبة . بهذه الطريقة أخذ حكام طيبة يسيطرون نفوذهم على النوبة مائة سنة منذ أواخر القرن ١٣ ق م بعد ذلك وضع المصريون يدهم بقوة على ذلك الاقليم ٢٥٠ سنة . ولبعد النوبة عن مصر اتخذت منفى للعصاة ، وذلك فى عهد الأسرة ٢١ ، لما أهملوا اليها أمراء طيبة المنافسين لهم .

من هذا يتضح أن شلالات النوبة ، كانت حاجزا حصينا لكل من يلتجئ اليها من طائفة كهنة طيبة ، وأفراد أسرهم ، فرارا من قسوة وعسف المصريين .

وبما أن مثل هذا القرار لا يسجل عادة على الآثار ، نستبعد حصولنا على معلومات بصدده .

والمعروف أنه فى القرن الثامن قبل الميلاد ، ظهرت فى أفق التاريخ بالنوبة

مملكة كاملة عاصمتها (نبتة Nepeto) ، الواقعة أسفل الشلال الرابع بقليل . وبديهي أن نبتة كانت حصنا من حصون حدود مصر الجنوبية أيام أمنحتب الثاني — أى قبل العصر الذى نحن الآن بصدده بسبع مئة سنة تقريبا — وقد كانت قبل ذلك الوقت محطة تجارية عظيمة على الطريق الموصل مصر بالسودان ، لذلك كانت (نبتة) ، أبعد المراكز فى المملكة المصرية ، وأمنها من هجمات الشمال .

ويلاحظ أن المملكة النوبية المذكورة ، جاءت مطابقة تماما لما ذكرناه عن أصلها فقد كانت بمثابة صورة طبق الأصل لامارة آمون الطيبية ، وكان آمون معبود هذه المملكة الرسمى ، شديد التدخل فى شؤون حكومتها ، بدرجة فاقت تدخله فى مصر ، حتى صار يعزل الملوك ويولى غيرهم . ولا يخفى أن مثل هذا النظام حصل تدريجيا . واعتقد اليونانيون خطأ أن أثيوبيا سبب حضارة مصر لأنهم شاهدوا كهنة مصر كثيرى الاعتبار والاعجاب بالنوبة . وما هو جدير بالذكر أيضا أن ملك أثيوبيا نحل لنفسه جميع الألقاب الفرعونية « كسيد القطرين » ، مع أنه لم يحكم مصر ، كما أنه أطلق على نفسه اسما مصرية . لكن ذلك لم يدم طويلا لأنه استبدل به بسرعة اسما نوبيا صميما ، وبقي الاسم الرسمى الملكى واللقاب الفرعونية مستعملة مدة طويلة . وشيد ملوك أثيوبيا معابدهم على الطراز المصرى ، وزينوها بالرسوم المصرية والنقوش الهيرغليفية وقدموا فيها قرابين وهدايا ، كما فعل قدماء المصريين . ثم انهم زخرفوا جدران المعابد بالدعوات كسعيد طيبة . فثبت بذلك بالامراء ، أن هذه المملكة النوبية مصرية الأصل مصبوغة بالصبغة الطيبية وبالرغم من ذلك فهناك بعض الأثرين لا يشاطروننا هذا الاستنتاج .

وظل تاريخ ملوك (نبتة) لانعرف شيئا عنه على وجه التحقيق ، حتى أماط الأستاذ (ريزنر) اللثام عن معميات هذا الموضوع ، فكشف ست

جبانات ملكية تقع كلها في محيط مدينة (نبتة) ومحيط مدينة (مروى) الأولى واقعة أسفل الشلال الرابع ، والثانية في أعلى الشلال الخامس ، وينسب لكل منها ثلاث جبانات ، والجبانات الملكية الثلاث التي كشف عنها في منطقة (نبتة) هي :

- ١ - جبانة (فوري) وتقع على مسافة ميل غربى النيل ، وعلى مسافة عشرة أميال شمال (جبل برقل)
- ٢ - جبانة (فوري) وتقع على مسافة ميل جنوب النيل ، وعلى مسافة ستة أميال جنوبى (جبل برقل) .

٣ - وبرقل حيث توجد مجموعتان صغيرتان من الأهرام ، وتقع بالقرب من (جبل برقل) في الجنوب والغرب .
وفى جبانة (الكورو) كشف (ريزفر) عن أهرام أربعة من فراغنة الأسرة ٢٥ هم . بعنخى وشبكا وشبكا كاثم تاتون آمون . وبهذا أصبح معروف لنا أربع مقابر لأربعة ملوك حكموا مصر وكوش ، وهؤلاء هم المعروفون بملوك الأسرة ٢٥ . ثم كشف عن قبر جدهم (كشتا) فاتح مصر . ومن ذلك نعرف ان ملوك هذه الاسرة قد وطلدوا حكمهم فى كوش قبل عهد بعنخى . ومن هذه البلدة النائبة (الكورو) أخذ ملوكها يفتحون ويحكمون مملكتهم العظيمة . التى امتدت شهرتها الى كل أنحاء العالم القديم المتسدين . فقد كان يقوم من الكورو البريد باسم ملك الكوش الى عواصم غرب آسيا . وقد عثر فى السجلات الملكية فى (نينوى) ، عاصمة آشور على طابع خاتم من الطين باسم الملك (شبكا) منذ عدة سنين ، ومن المحتمل أن يكون هذا الخاتم ، جزءا من رسالة الملك (شبكا) الى عاهل آشور (سرجون الثانى)

وأهم ما يلاحظ في جبانة (الكورو) أن المقابر فيها كانت على الطراز الهرمى الذى له طريق ذات سلم . واتجاه المبنى كان نحو الغرب (على الشاطئ الايسر للنيل) ، ثم فصل مقابر الملكات عن مقابر الملوك . وكان المتوفى يوضع مضطجعا على جانبه الأيسن ، بركبتيه المطويتين بعض الشيء ، ورأسه نحو الشمال . ووجهه نحو الغرب .

وكانت مقبرة الملك بعنخى عبارة عن حفرة وسطها مقبب خارج . ويلاحظ في هذه المقبرة ، أن عمق حجرة الدفن ، وحجم الأحجار التى بنيت بها الخارجة ، جعلت الموسمية والتربان فى خطر ، ولكن لتقليل هذا الخطر عمل سلم جسن صغير قطع فى الصخر من الجهة الغربية لحجرة الدفن حيث يوصل الى باب صغير فى الصخر ، وكان قبر بعنخى هو الأول من سلسلة طويلة من المقابر الملكية ذات السلالم ، التى أقيمت فى بلادكوش . وتدل مباني مقبرة شبتاكا على تقدم محسن عن مباني مقبرة بعنخى ، فلم تظل بعد حفرة فى صورة حجرة ، بل أصبحت حجرة منحوتة من الصخر الصلب ، ولها سقف مقطوع كذلك فى الصخر مقبب على غرار سقف قبر بعنخى . هذا الى أن السلم صار أجمل صنعا وأكثر عمقا .

ويدل بناء قبر شبتاكا على تقدم جديد فى فن العمارة ، إذ نجد السلم ينتهى عند بداية الممر الذى حول الى دهليزه سطح أفقى و سطح منبسط . ويأتى بعد ذلك فى الترتيب الزمنى هرم (نورى) الأول ، وهو قبر الملك تهرقا ولعله لم يبنه فى (الكورو) لأنه لم توجد مساحة كافية فى جبانة الملوك لاقامته . وهذا الهرم يحوى عددا من الحجرات والدهاليز ، التى أحكم نظامها تحت الأرض مما جعل منظره لأول مرة يختلف عن المقابر الملكية التى سبقته . ولكن عند فحصه بدقة ظهر أنه لا يختلف كثيرا عن مقبرة (شبتاكا) سلفه .

وقد خلف تهرقا في الحكم الملك تاتون آمون ، ابن الملك شبتاكا ، وقد عاد هذا العامل الى الكورو ، حيث أقام قبره هناك على الجانب الجنوبي لهرم جده شبكا ، وقد نجح في بناء هرم صغير بين هرم جده ، وبين الوادى الجنوبى ، ويلاحظ أن هذه المقبرة تعد صورة مطابقة للتصميم الأصيل الذى نشاهد انه قد نفذ في أقدم مقبرتين ملكيتين فى نورى . وتتألف كل منهما من سلم وحجرة استقبال صغيرة ، وثلاث درجات ، وحجرة دفن كبيرة مستطيلة الشكل .

وقد أقام أتلازسا خلف تاتوتاأمون فى نورى مقبرة من هذا الطراز الذى يشمل حجرتين . ولكن يلاحظ أن حجرة الاستقبال وحجرة الدفن كانتا على مستوى واحد .

والتغير الوحيد الذى نلاحظه فى مقبرته كان ، بلا شك سببه الفقر ، وتولى بعده الملك سنكا منسكن ، وكان ملكا ثريا قويا ، أقام مبانى كبيرة فى (جبل برقل) ، وكان حبه للترف ظاهرا فى كل نواحي قبره . وإذا استثنينا الملك بعنخى نجد أنه الملك الوحيد الذى استعمل الصل الملكى فى تماثيله . وهرمه يعد أكبر هرم أقيم بين أهرام الملوك الذين سبقوه عدا هرم تهرقا ، الذى يبلغ حجمه ٢٨ مترا مربعا . وقد قلده كل عظماء الملوك من خلفوه الى ان قتل الملك امانيا ستبارقا الحجم التقليدى للهرم وجعله ٢٦ مترا وستين سنتمرا وقد استعملت الجدران لينقش عليها المتون الجنازية ، التى تسمى الاعترافات بعدم ارتكاب ذنوب ، وهى جزء من كتاب الموتى ، وتشمل الفصل الخامس والعشرين منه . وقد ظل هذا الطراز من الهرم مستعملا مع بعض تغييرات طفيفة حتى القرن الأول قبل الميلاد ، وهو الطراز الذى وجدناه فيما بعد فى بلدة (مروى)

ومن ثم يمكن تتبع التطورات الطبيعية للهرم ، الذى يتألف من ثلاث حجرات وسلم ، وذلك من أول المقبرة التلية الشكل القديمة فى (الكورو) ، وهى التى تطورت الى مقبرة تلية الشكل مكسوة بالحجر ، ثم الى المصطبة القديمة المعروفة فى عهد الدولة القديمة ، ثم تطورت الأخيرة الى مقبرة بها حفرة للدفن ، ثم تحولت هذه المصطبة الى مقبرة ذات حفرة وسلم ، وهى التى ابتدعها بعنخى . ثم تطورت الأخيرة الى هرم أقامه شبكا له حرة واحدة وسلم . وقد حذا حذوه شبكا ، ثم الى هرم له حجرتان وسلم كالذى ابتدعه تهرقا ، وقفا أثره كل من تاتون آمون وأتلانرسا ، واخيرا قبر سنكا منسكن وهو القبر الهرمى الأول الذى أصبح طرازه تقليدا متبعا .

ومن الحقائق التى درسناها يمكن بناء تاريخ الأسرة التى دفن أفرادها فى جبانة « الكورو » ففى حين كان اللويون الشماليون يدخلون مصر السفلى ، كان اللويون « الجنوبيون أى « التمحو » يزحفون على وادى النيل فى كوش آتين بلاشك من طريق الواحات القديمة ، البى استعلمها فى خلال السنوات القلائل الأخيرة العرب ، الذين كانوا يهاجمون مديرية دقلة .

ومن المحتمل أنه فى عهد شيشنق الأول ، أو بعده بقليل ، جاء الزعيم النوبى الذى دفن فى المقبرة التلية الشكل فى جبانة (الكورو) ، وهناك وضع رحاله وأسس لنفسه ضيعة فى بلدة « الكورو » ، القرية من نباتا . ويدل ما بقى من محتويات قبره ، على أنه كان صاحب ثروة ضخمة . والواقع أن ثروة بلاد كوش الرئيسية كانت تنحصر فى منتجات الذهب ، التى كانت تزخر بها بلاد النوبة السفلى . وما تحصل عليهم من طرق التجارة بين مصر والجنوب عامة . ولا بد أن هذا الرئيس هو وأسرته كان صاحب الكلمة فى « الكورو » . وعندما اتزع هذه السلطة من نائب كوش

المصرى أصبح كسائر الزعماء الليبيين في وادى النيل وقتئذ تابعا اسميا لملك مصر الليبي الأصل . ويدل التطور الذى وجدناه فى مقابر هذه الأسرة على أن أعظم نمو فى سلطاتها قد حدث فى الأجيال الثلاثة الأولى من تاريخها ، وبعد ذلك لم نلاحظ هذا التقدم الا فى الجيل السادس . وذلك لأننا لم نجد تقديما محثا فى تطور المصاطب من أول الجيل الثالث حتى الخامس . والظاهر أن هذه الأسرة كانت قد حصلت على السيطرة فى بلاد كوش . ثم تمهلت بعد ذلك قبل الزحف على مصر .

(٣ - ملوك نبتة)

الملك كشتا : ولا نزاع فى أن « كشتا » هو الذى قد بدأ الزحف على مصر ، وقد كان يحصل لقب ملك ، ووصل فى فتوحه الى طيبة حيث جعل ابنة « أوسركون الثالث » التى ، كانت « المتعبدة الالهية » فى طيبة أو بعبارة أخرى الحاكمة المطلقة بها ، تبني ابنته (امردس) لتكون خلفا لها فى ملك طيبة ، غير أنه ليس من الواضح أن كشتا ، قد كسب حكم مصر العليا بالسيف او بالمعاهدة والتزواج مع الأسرة الحاكمة ، وذلك لأننا لانكاد نعرف الكثير عن حكم الأسترتين ٢٢ : ٢٣ الليبيتين فى مصر . ولا نزاع فى أن كشتا كان معاصرا أوسركون الثالث وتاكيلوت الثالث . اللذين حكما معا ، ولكن فى نباتا لم نجد الا اسما واحدا له اتصال بالأسرة ٢٣ وهو القائد (باشدت باست) بن شيشنق الرابع ، وكان هذا معاصرا لسلف أوسركون الثالث ، ومن ثم كان من الجيل الذى سبق كشتا ، وقد عثر على قطعة من اناء من المرمر نقش عليها اسمه (فى نورى) . وقد أحدث وجودها فى هذا البلد بعض الظن ، بأنه كان متصلا بصلة الزواج بالأسرة الليبية التى كانت فى (الكورو) ، وعلى ذلك فمن الجائز كما يقول (ريزنر) أن ادعاء الكوشيين لعرش طيبة كان مبنيا على هذا الرغم أو ما يماثله .

ومن المحتمل أن يكون (آارا) هو جد الأسرة الكوشية ، ولم يعرف قبره حتى الآن وهو أخو كشتا الأكبر ، وقد جاء ذكر اسمه على لوحة (تاييري) الموجودة الآن بمتحف الخرطوم ، كما جاء على ثلاث لوحات عثر عليها في (كارا) من الملك تهرقا ، والملك كشتا هو والد كل من الملكين بعنخ وشبكا ، وقد رجد اسمه على قطعة خزف مطلى في الكورو .

ومما يلفت النظر ، أن الآثار التي ذكر عليها اسم الملك كشتا بمفرده نادرة جدا إذ في غالب الأحيان نجده مذكورا مع اولاده وبخاصة مع ابنته (أمردس) في معبد (أوزير) بالكرنك ، وهي التي حفظت لنا اسمه ، وتدل الاحوال أن كشتا هذا لم يقيم بدور هام في تاريخ مصر الا تولية ابنته في منصب (المتعبدة الالهية) بعد وفاة (شبنوبت) ابنة الملك (أوسركون الثالث) . أما من حيث الاعمال الحربية وغيرها فلم نعر له على شيء في طيبة ولا في غيرها ، وأهم الآثار التي وجد عليها اسم كشتا هي :

قطعة من لوح مستدير أعلاها ، مصنوعة من الجرانيت عثر عليها في الفنتين بالقرب من بوابة الاسكندر المصنوعة من الجرانيت ، ونجد في جزء منها قرص الشمس الممجنح ، يدل منه الصل الملكي على اليسار ، وله جناح واحد ، وعلى اليمين نجد صورة العين السليمة . وفي أسفل هذا المنظر كان يوجد في الأصل على اليمين الهان «خنوم - رع» رب الشلال ، ولكن لم يبق من صورته الا جزء صغير ، والالهة (ست) سيدة الفنتين ، ولم يبق من صورتها شيء قط ، ويقدم لها الملك على ما يظهر مذهبها عليه نار ، ولم يبق من صورة الملك الا الرأس الذي يرتدى (تقية) محلاة بصل ملكي واحد . وقد صور المثال الملك بأقف أقطس ، وذقن غائرة ، وشفنتين غليظتين وبارزتين ، وبالاختصار نلاحظ في صورته أنه مثل شبه زنجي ، وهو يشبه كثيرا صورة طهرقا .

ولم يذكر هذا الملك (كشتا) بعد ذلك على أى نقش أو لوحة الا
بالاشتراك مع أولاده وبخاصة مع ابنته (امردس) المذكورة .
أسرة كشتا : كانت زوجته تلسى (بياتما) وهى أخته ، وقد أنجبت

منه بعنقى وشبكا ، وقد صار كل منهما على مصر والسودان . أما بناته
فهن : آبار تزوجت من أخيها بعنقى وأنجبت له (تهرقا) ، ثم (خنسا)
تزوجت من أخيها بعنقى . وعثر لهذه الملكة على مائدة قربان من الجرائيت
فى سلم قبرها (بالكورو) ، وهو محفوظ للآن بمتحف (بوستن) ، كذلك
وجد لها مائدة قربان بحجرة الدفن . كما وجدت لها أوان من المرمر ،
هذا بالإضافة الى تور من حجر ستيايت محفوظ فى نفس المتحف السابق .
ومن بناته كذلك الملكة (بكساتر) وقد تزوجت من أخيها بعنقى وقد
تبنتها الملكة (بياتما) لأنها بنت زوجها (كشتا) .

ثم له (أمردس) المتعبدة الالهية ، وقد وجدت لهذه الابنة آثار منها
وجد اسمها واسم والدها كشتا على نقش دون على صخرة فى جهة الشلال
الأول جنوب أسوان . ووجد لها لوحة فى مدينة (هابو) عليها اسمها
واسم والدها ، واللوحة محفوظة بالمتحف المصرى . كما وجد لها تمثال
من الجرائيت الرمادى طوله متر . وقد مثلت عليه (أمردس) واقفة على
قاعدة مرتدية ثوبا يفصل أعضاء جسمها ، ويدها اليمنى منديل وفى
اليسرى وردة . وترتدى على رأسها التاج ، الذى تلبسه عادة الزوجات
الالهيات ، وتتعلى بأسورة وعقود حول رقبتها . والتتمثال يستند على
لوحة نقش عليها : « الأميرة صاحبة الحظوة العظيمة والمديح المستفاض ،
وربة الرشاقة والحظوة والحيا ، سيدة كل ما يحيط به (آمون) ، وسيدة
التاج ذى الريشتين ، وجميلة اليدين . . »

وهذا التمثال جميل المنظر صناعته متقنة جدا .

ب - الملك بعنقى أ (۷۱۶ ق م) : والظاهر أن بعنقى نجس الملك

كشأ حكم حوالى سنة ۷۴۱ ق م وأخذ يمد نفوذه الى مصر ، والثابت أن بعنقى استولى حوالى سنة ۷۲۱ أو ۷۲۲ ق م على صعيد مصر حتى مدينة اهناسة جنوبى الفيوم ، ووضع جنوده النووية فى المدن الهامة . وفى هذا الوقت كانت سلطة الملك الليبى أوسركون الثالث القائم فى بويسطة (تل بسطة) منحصرة فى امارته ، ومحاطة بأعداء كثيرين من أمراء الوجه البحرى أهمهم (تفتخت) أمير صا لحجر غربى الدلتا .

وفى السنة الحادية والعشرين من حكم بعنقى بلغه أن تفتخت تغلب على كل أمراء غربى الوجه البحرى ، فأصبح بذلك ملكا على الوجه البحرى ، والجزء الأسفل بالوجه القبلى . ولم يقاوم فى الوجه القبلى الا امارة اهناس . بعد ذلك بلغ بعنقى أن (ناملوث) أمير الأشمونين سلم الى (تفتخت) فأرسل بعنقى جيشا قويا تحت قيادة ضباطه الى الجهات الشمالية بقصد وقف تقدم تفتخت جنوبا وحصار الآشمونين .

ويقول يبعنقى وقد نصحت رجالى قبل توجههم للقتال بعدة نصائح فقلت لهم : « لاتهاجموا أثناء الليل هجوم المتلاعبين ، بل اهجموا متى رأيتم أن العدو أعد جيوشه وخيوله للسير اليكم . واذا قامت الحرب فاعلموا ان « آمون » هو الذى أرسلنا اليهم . فاذا وصلتكم مدينة طيبة ، فاغتسلوا فى مياه معابد آمون واسجدوا له وقولوا « ثبت أفئدتنا على الحق لنحارب فى ظل سيفك » ففعلوا بما أوصاهم به ، وزحفت قوات يبعنقى نحو الشمال منحدرين فى النيل حيث تقابلت مع أسطول تفتخت النيل الكثيف ، ودارت معركة بين الطرفين ، أظهر فيها الفريقان شدة

البأس و غاية الحرص ، الا أنه ما لبث أن تطرق الوهن الى عزائم المصريين ، فتغلب الأثيوبيون عليهم ، واستولوا على الكثير من سفن تفنخت ، وأسر عددا كبير من رجاله . فازداد نشاط الأثيوبيين ، واستأنفوا الزحف شمالا متبعين في سيرهم بحر يوسف «على الأرجح» حتى بلغوا مدينة اهناس ، فوجدوا قوات تفنخت منهمة في حصارها : فهزموا تلك القوات ، واضطروها الى الفرار شمالا برا وبحرا .

وكان «ناملوث» منضما الى قوات تفنخت ، فلما انهزمت قوات الأخير ، انفصل «ناملوث» عنه وصمم على الذهاب الى الاشموين مدينته للدفاع عنها ضد النوبيين الذين عادت قواتهم ثانية عن طريق بحر يوسف الى الاشموين وحاصرتها .

ولما علم بعنقى بهذه الأخبار ، استشاط غيظا خصوصا لما علم بهرب جيش الوجه البحرى الى الدلتا ، ولما كان وقتئذ آخر السنة ، عزم جلالة على الاحتفال بعيد رأس السنة في بلده ، ثم الذهاب الى طيبة للاحتفال بها بالعيد ثم الزحف شخصيا الى مصر . وفي أثناء ذلك كان قواد النوبيين يستولون على مدن مصر الواحدة تلو الأخرى ، ولم تقاومهم كثيرا الا الاشموين .

ونفذ بعنقى خطته السابقة ، فزحف بجنده شمالا في أوائل السنة واحتفل بعيد (أوبت) بطينة في الشهر الثالث ، ثم ولى وجهه شطر الشمال وسار نحو الاشموين فوجد جنده يحاصرونهم مدة أربعة أشهر أو خمسة ، وشدد جلالاته عليها الحصار ، وأمطرها وابلا من السهام والحجارة من فوق الاستحكامات والبروج ، حتى تصاعدت الروائح الكريهة من موتاهم ، فأخذت تسلم لجلالاته . وأراد أميرها أن يرضى قلب بعنقى نحوه ، فأرسل اليه هدايا ثمينة ضمنها تاجه الملكى ، لكن بعنقى كان صلب الرأى . فأرسل ناملوث زوجته الى

زوجة بعنقى لتسترحمه لزوجها ، ونجحت هذه الحيلة ، وسلم ناملوت على اثرها المدينة وجميع خيراتها الى الفاتح النوبى ، نظير السماح له بالبقاء حيا . بعد ذلك تفقد بعنقى قصر ناملون وخزائنه ، وتفقد الخيل فرآها جائعة فقال جلالتة : « أقسم برع - الذى يجنبى - لئن أرى خيلى جائعة ليكون هذا أصعب على من كل جرم ترتكبه » . بعد ذلك سلم ناملوت كل أملاكه الى خزائن بعنقى .

ووصل بعنقى الى اهناس بعدما ذاقت الأمرين من حصار تفنخت لها فخرج أميرها وحيا بعنقى ومنحه كثيرا على تخليصه من هذا الحصار ثم زحفت القوات النوبية بحرا عن طريق بحر يوسف الى الدلتا ، واستولت فى طريقها على المدن المهمة الغربية التى كانت تسقط بمجرد رؤية بعنقى ولم تتجاسر مدينة على مقاومة النوبيين ، الا مدينة كيماز فارس فى الفيوم . ثم زحف غربا مارا باللاهون . وقدم ملك النوبة القرابين لكل مدينة مر بها ، وأخذ معه كل ثمين لتقديمه الى خزائن آمون .

وبلغ بعنقى منف فوجدها محصنة جيدا بقوات تفنخت الذى اعتبرها جزءا من مملكته منذ زمن بعيد ، والذى اعتبر نفسه كاهن معبودها الأكبر بتاح ، فطلب بعنقى من المدينة أن تسلم نفسها ، لكنها أقفلت أبوابها ثم قامت حاميتها بحركة هجوم خارجا فلم تنجح فجن الليل ودخل تفنخت المدينة ، وحث حاميتها على الدفاع والاعتماد على جدرانها وموتنها الكثيرة وارتفاع مياه فيضان النيل شرقى المدينة . وطلب من جنده هناك أن يستمروا على الكفاح ، حتى يذهب شمالا ليحضر اليها امدادات أخرى . ولما وصل بعنقى شمال منف ، دهش لمتانة حصونها ، فأشار عليه

حينئذ بعض ضباطه أن يحاصرها . وحيد الآخرون الهجوم والاستيلاء عليها عنوة ، بلا استحكامات وابتكر لذلك فكرة صائبة تشهد له بالبراعة فى الفنون الحربية ، وتفسير ذلك أن جلالة لاحظ أن سور المدينة الغربى رفع عن مستواه حديثا ، وان السور الشرقى مهمل نوعا ، ومحاط بمياه الفيضان . أما ميناء البلد ففى جهتها الشرقية وفيها سفن الأسطول ، فأرسل بعنقى أسطولا بسرعة الى الميناء واستولى على سفنها عنوة وضمها الى أسطوله ثم قاد هذه القوة الحربية بنفسه وهاجم أسوار المدينة الشرقية وتسلقها رجاله ، فاستولى على المدينة ، قبل ان يتمكن رجالها من تعزيز حصونها ، بعد ذلك حصلت فى المدينة مذبحة عظيمة ، روعت فى أثنائها حرمة المعابد وانتهت بنبذ تفنخت بواسطة المعبود بتاح ، والاعتراف بعنقى ملكا على مصر كما كان منتظرا .

هكذا خضع اقليم منف بأجمعه الى بعنقى ، وعلى اثر ذلك أتى أمراء الدلتا الى جلالة بالهدايا معترفين له بالسلطان والسيادة وجزأ جلالة خيرات منف بين خزائن آمون وبتاح ، ثم عبر النهر وادى الصلاة بمعبد قديم ، ثم اتجه شمالا حتى بلغ مدينة عين شمس ، حيث دخل قدس الأقداس بمعبد عين شمس ، وهناك اعترف به (رع) بأنه ابنه من سلالته الجالس على عرش مصر كالعادة المتبعة منذ حكم الأسرة الخامسة ، وفى ذلك المكان وفد عليه أوسركون الثالث أمير (تل بسطة) المنتمى الى الأسرة ٢٣ وقدم فروض الطاعة الى بعنقى ، واعترف له بسيادة النوبة على مصر . ثم زحف بعنقى الى شرق بنها (أتريب) ، حيث أقبل عليه أمراء الدلتا (٢٥ أميرا) مظهرين الولاء والطاعة ، الا تفنخت . الذى ظل يقاوم حتى يس ، فأرسل الى بعنقى يطلب الامان بقوله : « اكنتم غيظك فانى وجل من رؤيتك لعدم مقاومتى نار حربك ، وامتلا قلبى بفرغك ، فأسالك العفو عنى ، واعلم أنك بذرت

بذورا حصدت محصولها في ابان حصادها ، ثم أردف ذلك بهدايا ثمننة من الذهب والفضة . وأقسم يمينا مقدسة بالآلا يخالف امرا ، ولا يعكر لسياسته صفوا ، ولا يسيء لأحد من عماله « فسر بعنقى لذلك وعفا عنه .
وهكذا خضعت كل جهات القطر الى بعنقى الذي نزع الملك من أيدي الليبيين ، وبعبارة أخرى أضحي بعنقى حاكم مصر المطلق .
وبعد ذلك عاد بعنقى الى نبتة منتصرا مظفرا ، حيث نصب معبدها شاهدا جرنيتيا بديعا ، نقش على جهاته الأربع أخبار هذه الرحلة تفصيلا وأظهر نفسه فيه كابن آمون ، ومذل أعدائه الشماليين . ويعتبر هذا الوصف أتقا وأصح بيان تاريخي وحربي قديم بعد أخبار حروب تحتمس الثالث ، ووصف معركة (قادش) لرسيس الثاني . ويتضح من وصف الحجر المذكور أن حالة مصر كانت سيئة للغاية .

وبعد عودة بعنقى الى نبتة ، قام تفنخت من جديد فأنشا في الوجه البحرى مملكة مستقلة ، و نحل لنفسه الألقاب الفرعونية ، وبقي حاكما على أمراء الدلتا ثمانى سنوات . ولما توفى خلفه ابنه (أبو كوريس) مؤسس الأسرة ٢٤ الصاوية ، وذلك حوالي ٧١٨ ق م .
أما في الصعيد فقد ظل حكم بعنقى مبسوطا مدة قصيرة أقام في أثناءها بعض عمارات طليفة بمعبد « موت » بطيبة . ونقش رسومات تمثل أسطوله في النيل مبديا فرحه لاقتصاراته ، التي حازها . ومنه يتضح أن نفوذ بعنقى استمر باقيا على صعيد مصر الى مدينة اهناس ، ودلتنا النقوش أن حاكم اهناس كان قائد الأسطول النيلى لبعنقى .
ولما انسحبت قوات بعنقى اجتهد أوسركون الثالث في ارجاع سلطة أسرته الثالثة والعشرين ، فبسط نفوذه على طيبة مدة يسيرة . لكن أمراء

صالحجر اخذوا ينافسون تل بسطة في الحكم ، فاعتصب بوكوريس بن
تفخت الصاوى عرش مصر السفلى هو الى عام ٧١٨ ق م ، وأسس بذلك
الأسرة ٢٤ ، وصار بعد ذلك الملك الوحيد لهذه الأسرة ، بقدر ما تسمح
به معلوماتنا عن تلك العصور .

الملك شبكا (٧١٦ - ٧٠١ ق م) : وبعد ماضى على رجوع بعنخى
الى النوبة عشر سنوات ، أخذ ملوك نبتة يسترجعون سلطتهم على الوجه
البحرى الذى كان فى حالة بؤس وشقاء . والمعروف أنه لما توفى بعنخى
ورثه فى الملك ابنه (شاباكا habaka) ، الذى حكم من (٧٠٧ - ٦٩٦ ق م)
ولم نهتد الى اخبار تاريخية مصرية تثبت غزو شاباكا لمصر ، ولكن المؤرخ
مانيتون ، ذكر أن هذا الملك أحرق أبو كوريس الصاوى حيا ، وبسط
تفوزه على الوجه البحرى بأجمعه ، وقوى مركزه حتى أسس الأسرة ٢٥
الأثيوبية . واتضح لشبكا خطورة مركز مصر ازاء آشور (١) فأرسل الى
سوريا وفلسطين من أوقد الثورة ضد آشور ، ووعد ولاية سوريا
بالمساعدة اذ هم ثاروا على سيدهم النينوى فانصاع لهم ولاية : يهوذا
ومواب وادوم ، ارتكانا منهم على مجد مصر القديم ، جاهلين انحطاطها
الداخلى وقتئذ ، ومؤملين التخلص من الحكم الآشورى الشديد .

ولم يفقه من هؤلاء الولاية خطورة الحالة الا « أشعيا » حاكم ولاية
يهوذا ، فقد أكد ان الاعتماد على مصر لا طائل تحته ، لأنه اعتقد أن آشور
ستستولى على مصر يوما ما . ولما علمت آشور بهذه المحالفة ضدها ،
أدركتها بسرعة ، فانقرط عقد المحالفة وأظهر المتحالفون ولاءهم لها فى

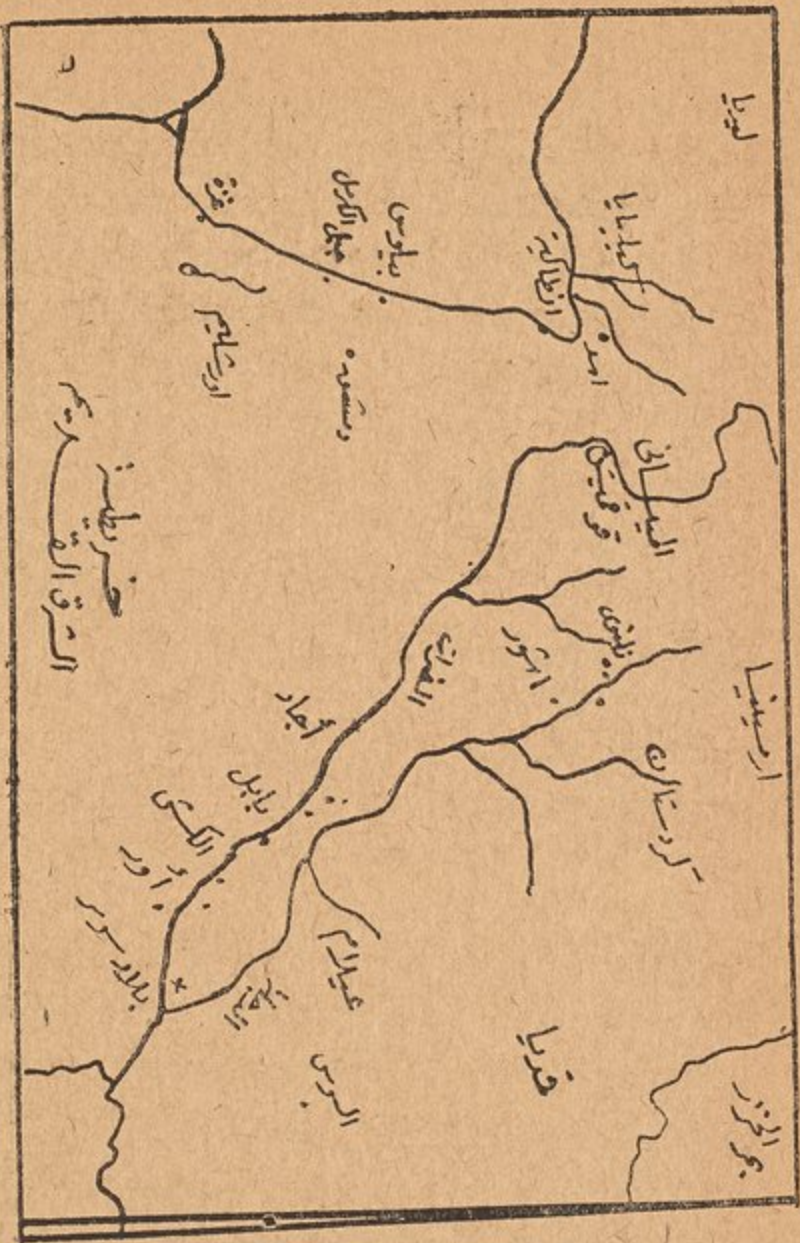
(١) الدولة الآشورية نشأت فيما بين نهري دجلة والفرات ، وتهدمت نحو الغرب فاجتازت
جيوشها سوريا وفلسطين وخضعت لها بابل مواصبحت تهدد مصر بالغزو . وما لبثت أن
سنة ٦٧٠ ق م وطردت النوبيين منها .

الحال وقد نجح مرجون الثاني (ملك آشور منذ ٧٢٢ ق م) في توطيد مركزه ، رغم ثورات بابل ، واضطرابات الأقاليم الشمالية . ثم توفي سنة ٧٠٥ ق م فتبعه في الملك ابنه سنخاريب ، فوجد نفسه حاكما على أول مملكة سامية معروفة لنا في التاريخ مدعمة الأساس قوية الأركان .

ولما تولى سنخاريب الملك اشتبك في اخماد اضطرابات بابل المعتادة ، التي سببها أحد أمرائها المطالبين بعرش بابل . فقد ألب هذا الأمير كل أعداء آشور عليها . فانصاعت اليه جميع مستعمرات آشور الاسيوية الغربية ، ثم دخلت مصر هذا التحالف ، وقر قرارهم أخيرا على محاربة نينوى ولكن قبل ان يبدأ هذا التحالف هجومه ظهر سنخاريب فجأة في الغرب ، مارا بفينيقيا مستوليا على قلاعها ماعدا صور ، ثم زاحضا جنوبا على مدن فلسطين العامة فعاقب عسقلون على عصيانها ثم زحف على ألتاكوا ، حيث التقى بجيش التحالف ، الذي جمعه شبكا من الولاة الشماليين ، عبر عنهم سنخاريب بسلوك موصري . ولم نهتد للآن الى معرفة عدد هؤلاء الجنود وقتئذ لكن سنخاريب وصفها بأنها تفوق الحصر ، والمحمتم أنها لم تكن قوية جدا (شكل ١٣)

أما الجنود المصرية التي اشتركت في المعركة ، فلم تكن بأى حال من الأحوال جديرة بقتال جيش آشور . لعنهم وجود السلطة المركزية بالقطر ، وتفوق كلمة أمراء الوجه البحرى ، وعدم اعتنائهم بأمورهم الحربية . أما الجيش الآشورى فكان مدربا محضكا لدرجة جعلت آشور الشغل الشاغل فى آسيا الغربية .

والحق يقال ان الجيوش المصرية ، لم تلتق للان مع جيوش آشور فى معركة كبيرة ، أما الامدادات التي أرسلتها مصر الى سوريا وفلسطين ضد آشور فكانت ضعيفة لا يعبأ بها . ولما التقت القوتان السالقتا الذكر ،



الشرق القبطية
خزيطية

(شكل ١٣)

كان سنخاريب يقود شخصياً قواته ، وكان طهرقا بن بعنشى موكلا من الملك شبكا الزوبى لقيادة القوات المصرية ولصيرورة طهرقا ملكا - فيما بعد - على أثيوبيا ، نعته اليهود في هذه المعركة بملك ، وبديهي ان المعركة التي دارت رحاها اتهمت بهزيمة المصريين كما كان منتظرا . وقد تم هذا بسرعة ، ثم أعقبه حصار بيت المقدس ، وتخريب مقاطعة يهوذا . بهذه الكيفية وقف سنخاريب كل مشاحنات الغرب ، وشتت شمل أعدائه . وبينما هو يحاصر بيت المقدس فشاين قواته وباء ذريع أتى اليهم من مستنقعات الدلتا المربوطة بالملاريا ، فحصد من جيش آشور عددا عظيما ، وفي أثناء تلك المحنة وردت على سنخاريب أنباء سيئة من بابل ، تفيد حصول اضطرابات خطيرة هناك . ولذلك أسرع الى نينوى قبل أن يستولى على بيت المقدس .

ولا يخفى أن رجوع سنخاريب جاء بمثابة اقراج للكربة الحالة ببيت المقدس ومصر معا . وهذه هي المرة الثالثة ، التي يصل فيها جيش آشور الى الحدود المصرية ، ثم يرجع مضطرا لظهور حوادث اجبارية لم تكن في الحساب .

أما فلسطين وسوريا فقد انعدمت ثقتهما بأثيوبيا ، حتى صما آذانهما عن كل مشروع أشارت به هذه الأخيرة عليهم ، والسبب في ذلك انهما عرفا حقيقة الحال كما عرفها الاسرائيليون قبلهم . ودليلنا على ذلك ما جاء بخطاب ضابط سنخاريب ، الذي أرسله لنواب بيت المقدس التعاء واليك ترجمته :

« لقد اتكلت على عكاز هذه القصة المرضوضة ، على مصر ، واذاتوكأ أحد عليها ، دخلت في كفة وثقبتها ، هذا هو فرعون مصر ، وهذا شأن المتكئين عليه » .

ويظهر أن شبكا ظل حاكما أمراء القطر المصرى طول حياته ، ويرجع

أنه اتفق مع سنخاريب في مخالفة ، دليل وجود ختمى هذين الملكين يجاور أحدهما الآخر على قالب لبن جهة (كيو نجيك) . وأظهر شبكا عظفا ومساعدة نحو طائفة الكهنة والمعابد . ومن مآثر هذا الملك ترميمه لنقوش دينية قديمة على جدار معبد بتاح ، تعتبر الآن أهم القطع الأدبية القديمة المعروفة ، ثم أرجع أخته « أمنردس » فى وظيفتها السابقة بمعبد آمون بطيبة بعدما طردها أرسركون الثالث لمدة قصيرة ثم اتحد مع أخته هذه وشيد معبدا بالكرتك وأرسلا لذلك بعثة لقطع الحجر اللازم من مناجم وادى الحمامات . وتوجد بطيبة نقوش تشير الى اصلاح شبكا للمعابد هناك . ولذلك يظهر أنه أظهر عظفا واحتراما لمعابد مصر كما فعل فراغة مصر قبله . أما امنردس فحكمت فى طيبة مستقلة استقلالاً كبيراً ، والظاهر أنه بالرغم من المساعدة التى أسداها شبكا لكهنة مصر فإنه شل قهو ذريئس كهنة طيبة ، كما سيجبىء الكلام على ضعفه وعجزه بعد .

د - الملك شبتاكا « ٧٠١ - ٦٩٠ ق م » : وتوفى شبكا عام ٧٠١ ق م

بعد ما حكم اثنتى عشرة سنة تقريبا ويرجح أنه حكم أكثر من ذلك فى النوبة . وتبعه فى الملك ملك نوبى يدعى شبتاكا ويقال انه ابن بعنخى كما يقال انه ابن شبكا . وامتاز حكمه بالهدوء والسكينة ، لأن مستعمرات آسيا الغربية ، بقيت ساكنة لا تتحرك ضد آشور . زد على ذلك ان سنخاريب كان مشغولا فى حروبه مع مستعمراته الشرقية . ولم نعر الى الان على اسم شبتاكا على الآثار المصرية الا نادرا ، وانما يستدل من الحوادث التى تلت حكمه ، أنه كان ضعيفا غير كفء لمكافحة أمراء اقاليم مصر وجميع قوتهم كى يستعد لقتال آشور الذى كان ينتظر حصوله من آن لآن .
لقد وضع للمعيان أن الأثيوبيين ليسوا أكفاء لتسلم مقاليد الحكم

وقد زاد هذا وضوحا في أواخر حكم شبتاكا ، الذي انتهى حوالى سنة

٦٨٨ ق م

هـ - الملك طهرقا • « ٦٩٠ - ٦٦٤ ق م » ويجدر بنا في هذا المكان

أن نستقصى أخبار الأمير طهرقا بن بعنقى الذى ترك نبتة شابا بالغامن
العمر سنة وتوجه الى مصر مع الملك شبكا على الأرجح - فنقول : ان
طهرقا هذا ابن امرأة نوبية ، وتبدو على وجهه ملامح الزنوج • والحق
يقال ان هذا الامير قام بأعمال عظيمة تناسب علاقته ببعنقى ، من ذلك ما
ذكرناه آنفا من انه قاد الجيوش المتحدة ضد سنخاريب • أما كيفية جلوس
هذا الأمير على العرش فلا نزال نجعلها ، لكن المؤرخ مانيتون أخبرنا أنه
قاد جيشا جرارا من أثيوبيا وقتل شبتاكا ، ثم اغتصب العرش الفرعونى •
أما الآثار المصرية فلم يعثر على ما يشير الى مثل هذا الانقلاب فيها ، وكل
ما وجد على آثار تيسس أن الملك طهرقا طلب من أمه أن تحضر الى مصر من
نبتة بعد ما غاب عنها عدة سنوات ، ودعاها لتسلم مركزها السامى بمصر
كالأم الملكية • من ذلك يستتبع أن المصريين كانوا في انتظار غزوة آشور
للدلتا ، وأن الأثيوبيين اتخذوا تيسس عاصمة لقربها من آشور •

واستمر طهرقا يحكم بلا منازع من جهة آسيا لمدة ١٣ سنة ، شيد في
اثنائها عمارات صغيرة بتيسس ومنف ، وأخرى اكبر حجما بطيبة • وأيقن
بقرب هجوم آشور عليه ، فأخذ يعد عدته لذلك • ويلاحظ أن آسيا الغربية
مضى عليها حوالى عشرين عاما لم تر فيها سنخاريب الذى قتله أولاده عام
٦٨١ ق م بعد ذلك تولى ابنه آشور أخى الدين الملك ، فأخذ يستعد لغزو
مصر ، والقضاء على فرعونها كى يستريح من تدخلها المستمر فى شئون
مستعمراته الفلسطينية والسورية ، فوصل بجيشه العرمرم الى حدود الوجه
البحرى عام ٦٧٤ ق م وهناك التقى بقوات طهرقا ، الذى كان أكثر شجاعة

واقداما من سلفه . ودارت رحا القتال بين الطرفين ، وانهى الأمر بفوز
المصريين على آشور ، كما ورد على الآثار عام ٦٧٣ ق م .
بعد ذلك أخذ آشور أخى الدين يستعد فى الخفاء لغزو مصر وفى ذلك
الوقت انضم ملك صور الى المصريين ضد الأشوريين ، وذلك على أثر علمه
بهزيمتها الأخيرة على الأرجح . وفى عام ٦٧٠ ق م ظهر آشور أخى الدين
ثانيا فى غرب آسيا قائدا جيشه وحاصر صور وانضم اليه بعض العرب ،
فدلوه على طريق الصحراء الى مصر ، وقد استخدم جمالهم لحمل مياه
الشرب وقت اختراق الطريق . بعد ذلك التقى بجنود طهرقا ، الذى لم
يكن مستعدا جيدا لهذا الكفاح . فدارت رحا القتال بين الطرفين ، وانهت
بفوز آشور ، وتمزيق شمل المصريين . على اثر ذلك تقهقر طهرقا نحو
منف ، لكن آشور أخى الدين تتبعه بشدة وبسرعة لا تعرف الملل ، فاستولى
على منف وسلبها من كل ثمين ثم فر طهرقا جنوبا ، تاركا الوجه البحرى
فى أيدي آشور أخى الدين الذى نظمه وضمه الى أملاكه . وذكر آشور
أخى الدين أسماء عشرين أميرا عينهم ملوك النوبة على الدلتا ، وقال عنهم
أنهم أتوا اليه ، وحلقوا له يمين الطاعة ، فسمح لهم بالبقاء فى مراكزهم ،
بشرط ان يستمروا مواليين له . وقد لاحظنا أن فى هذه الاسماء المكتوبة
بالخط المسامرى ما يشير الى تكرار بعضها أو الى انتماء بعض هذه الأسماء
المتشابهة الى أسرة واحدة . وقد سبق لبعنخى أن عامل أمثال هذه الأسر
سابقا وجاء بين هذه الأسماء الأمير (نيخاو) بن تفنخت ، نعت بأنه أمير
صالحجر ومنف ، وورد ضمن هذه القائمة أيضا اسم أمير طيبة ، لكن هذا
القول يستبعد تصديقه لأن آشور أخى الدين لم يحتفظ الا بالسلطة
الاسمية على الوجه القبلى . ورجع آشور أخى الدين الى وطنه متبعا
طريق الساحل البحرى شمالا مارا بصخور نهر الكلب ، فنقش عليها

لوحا أثريا ، أثبت عليه انتصاراته الحربية ، وهو يجاور الأثر الحجري الذي تركه رمسيس الثانى المذكورة فيه انتصاراته . ولما بلغ آشور أخى الدين شمال سنجرلى شمال سوريا نصب فيها أثرا عظيما ، يملكه قابضا على أسيرين ، يغلب على أحدهما أنه ملك صور ، وعلى الآخر أنه طهرقا ، لما تبدو عليه ملامح الزوج .

وهكذا يتضح للقارىء أن القطر المصرى حكمه الأجنبى فى عهد الليبيين ثم فى عهد النوبيين ثم أتت آشور بعد ذلك ، فبسطت نفوذها على مصر ، وبديهي أن القوة الثالثة الأجنبية متباينة تماما عن السابقتين ، وان الليبيين والنوبيين تمصروا ، وحكموا مصر كأنهم فراعنة . وأما آشور فحكمت الدلتا من دون مراعاة شفقة أو عطف نحو المصريين وعاداتهم ، ولذلك لم يحتل الأمراء المصريون ذلك العسف الآسيوى فحنثوا فى ولائهم الذى أقسموه لآشور ، وأخذوا يتحدثون سرا مع طهرقا ليستعيد الحكم فى الدلتا . على أثر ذلك أتى طهرقا الى الوجه البحرى ، بعد ما رجع جيش آشور الى وطنه ، فاضطر آشور أخى الدين ان يعيد الكرة على مصر لكنه توفى فى أثناء زحفه عليها عام ٦٦٨ ق م فلما تولى الملك بعده ابنه آشور بانيبال اتبع خطة والده بسرعة ، وعهد الى أحد ضباطه بقيادة الحملة الى مصر . فلما التحمت جيوش آشور بجيوش طهرقا ، فيما بين منف ، وشرقى الدلتا ، انهزم طهرقا الذى لم يتحصن بعد ذلك بمنف كما فعل سابقا ، بل فر نحو طيبة حيث تحصن . لكن الاشوريين جمعوا المدد من الوجه البحرى وزحفوا أربعين يوما حتى بلغوا طيبة ، فاضطر طهرقا أن يغادرها وأن يتحصن بأعلى النيل ، عند ذلك لم يتعقبه جيش آشور ، بل تركه وشأنه . ولم يثبت للان اذا كانت آشور قد استولت على طيبة وقتئذ أم لا . لكن الثابت أن سلطة اشور بانيبال ، لم تمتد الى الوجه القبلى . ولما أراد اشور توطيد نفوذه فى الدلتا ، أخذ ولاته هناك يتراسلون سرا مع طهرقا لينقذهم

من نير اشور . وكانت هذه العصاة برياسة (نيخاو) الذى ولاء اشور
أخى الدين على صالحجر ، ومعه والى تنيس ووالى سقط الحنة وأرسل
فرعون اشور بمصر خبر هذه المؤامرة الى اشور بانيبال ، فأمر بإرسال
هؤلاء الرؤساء مصفدين بالأغلال الى نينوى . عند ذلك احتال نخار بدهائه
حتى استمال عطف أشور بانيبال عليه فصصح عنه وأغدق عليه النعم ثم
أرجعه الى مركزه بصالحجر ، وعين ابنه واليا على أتريب «بناها» ، لكنه
أرسل معه موظفين أشوريين لمراقبته . وقد نجحت هذه الحيلة جيدا ، فلم
يظهر طهرقا ثانية بالدلتا لعدم مساعدة ولاة الوجه البحرى له لكنه بالرغم
من ذلك قد أرخ كهنة بتاح بسنف تاريخ وفاة عجل من عجول أيبس سرا
باحدى الطرق المحفورة تحت الأرض بمدفن تلك العجول المعروف
بالسريوم . فكتبوا عليه السنة الرابعة والعشرين من حكم طهرقا عام

٦٦٤ ق . م

ومضى على هذه الحال عدة سنوات ، كان الوجه القبلى فى أثناءها تحت
سلطة طهرقا الفعلية . أما رئيس كهنة امون فى طيبة فقد أصبح الآن قليل
النفوذ ضعيف السلطة . والسبب فى ذلك أن النفوذ كان هناك فى يد شخص
يدعى منت محت ، الملقب «أمير طيبة» أو حاكم الجنوب ورئيس كهنة
مصر . والظاهر أن هذا الأمير كان قويا وثريا ، صرف أموالا طائلة فى
اصلاح ماتلف من المعابد بعد الذى أحدثه الأشوريون (على الأرجح)
بالرغم من فقر مصر وبؤسها . واستولى طهرقا على دخل امون بطيبة بأن
عين أخته المدعوة (شب نوبت) بدل الأميرة أسردس ، أميرة طيبة الدينية
التي عينها بعنخى بطريقة مماثلة . ويعزى الى طهرقا أنه شيد أو أصلح
معبدين عظيمين بنبتة عاصمة أثيوبيا ، التي عظمت وصار لها منزلة كبيرة
تناسب مع مملكتها السامية وقتئذ .

وقد بنى معبدا بجبل البرقل ، لاتزال آثاره باقية ، وهو أهم المعابد جميعا ، ويقع في واجهة جبل البرقل الجنوبية وقد بناء باسم الاله امون والاله (مت) ، ومحراب هذا المعبد منحوت في الصخر والنقوش التي على جوانبه لا تزال بحالة حسنة . هذا وتوجد القاب طهرقا واسمه على معابد أخرى .

٦ — الملك تاتون امون : (٦٦٤ — ٦٦٣ ق م) : وبعد حكم طهرقا

خمسا وعشرين سنة أشرك معه في الحكم ابن شبتاكا المدعو تاتون امون . بدواع اجبارية على الأرجح ، وعينه حاكما على صعيد مصر . وذلك عام ٦٦٣ ق م والظاهر أن تاتون امون استمر في طيبة وقتا ما كان منت محت أمير طيبة محافظا على سلطته هناك .

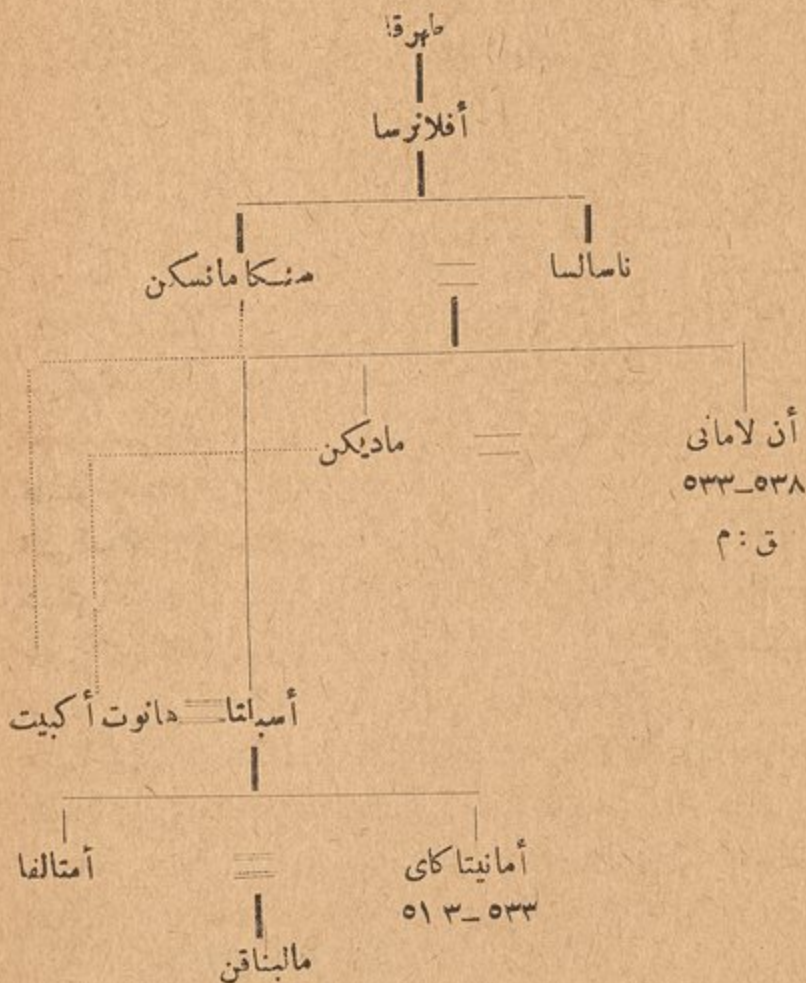
أما طهرقا فرجع الى نبتة ، متعبا من كفاحه مع اشور ، واستقر هناك حتى توفي ، وذلك قبل أن تنقضى سنة تقريبا على توليه تاتون امون « أي عام ٦٦٣ ق م » عند ذلك أسرع تاتون امون الى نبتة ، وتسلم عرش النوبة وقبل ذلك بقليل رأى تاتون امون فيما يرى النائم حلما ، فسّر بأنه سيستولى يوما على وجهي مصر . فبدأ حال توليته الملك بتحقيق المنام وذلك سنة ٦٦٣ ق م ولعب على مسرح الحياة مثل الرواية التي مثلها طهرقا فلما بلغ الوجه القبلي حيته الأهالي بالمديح والتصفيق . ولكنه لما بلغ منف ، قابلته قوات آشور ، ومدن أمراء الدلتا الوجلين من آشور ، فتغلب عليهم واستولى على منف ، والظاهر أن نخا وخر صريعا في هذه المعركة . وقال هيردوت : ان ابنه المدعو بسماتيكفر الى سوريا . ففرح تاتون امون بنصره كثيرا ، وأرسل بعض غنائمه الى نبتة ليشيد بهامعابد جديدة . أما ولاية الوجه البحري فانهم لم يسلموا بلادهم لتاتون امون « لخوفهم من آشور » فلم

يتمكن تاتون آمون من الالتقاء بجيوشهم او القبض على بلادهم ، فرجع الى منف وقابل هناك أمراء الوجه البحرى ، الذين أظهروا له الود ، والخضوع بشكل لا يفهم منه أنهم قطعوا صلتهم مع آشور .

واقصر تاتون فى سيادته على الوجه البحرى ، فاتخذ منف مقرا له ، محققا منامه . ولكن ولاية آشور بالوجه البحرى كانوا قد طيروا خبرا على جناح السرعة الى آشور بانبيال بنيوى ، طالما غادر تاتون آمون نبتة ، ولذلك أتى جيش آشور عام ٦٦١ ق م الى مصر وطرد الأثيوبيين من الوجه البحرى نهائيا ففر تاتون آمون الى الصعيد لكن الاشوريين تعقبوه حتى طيبة وسلبوا عاصمة القطر فلم يتركوا فيها ثمينا الا سلبوه فاستولوا مثلا على التماثيل البديعة والأثاث الجميل والأدوات الغالية التى أهدهاها الأمير منت محت الى المعابد . وأخذ الاشوريون خلاف ذلك مسلتين فضيتين زاهيتين زنة كل منهما ٢٥٠٠ تالنت (التالنت يقرب من ٥٧ رطلا) كاتنا منصوبتين على مدبل أحد المعابد ، وقد تقلوها . الى نيوى . ومن هذا يتجلى لنا أن معابد طيبة المهمة ، كانت محتفظة بثروة عظيمة حتى ذلك العهد ، وانتشر نبا خراب طيبة فى الآفاق ومنذ ذلك الوقت اخذت طيبة تضمحل وتندثر ، بعدما كانت مضرب الأمثال فى الغنى والجاه ، ولاتزال الى الآن حاوية أعظم الآثار والأطلال من تلك العصور القديمة .

وكان رجوع تاتون آمون الى نبتة نهاية الحكم الأثيوبى بمصر بعدان دام هذا الحكم حوالى ثمانين سنة .
والعصر الأول للملكة كوش بعد انفصالها عن مصر يمتد من سنة ٦٥٣ -

٥٣٨ ق م ويشمل حكم ستة ملوك من احفاد الملك طهرقا، ويتضح ذلك من الدول الآتى (١) :



ويبدو أن هؤلاء الملوك كانوا أغنياء وأقوياء رغم انفصالهم عن مصر كما يبدو أنهم احتفظوا بالثقافة المصرية التي ورثوها، فمثلا نجد أن حجرات

الدفن في أهرامات انلامانى وأسبلقا ، اكتشفت فيها توابيت يزن الواحد منها ١٥ طنا ، والغطاء وحده أربعة أطنان ، وكان يزينه بالنصوص التقليدية ، التى كانت مستعملة بمصر منذ عهد الدولة الحديثة ، كما تحوى مقتطفات من نصوص الأهرام وكتاب الموتى •

وكشفت عمليات الحفر والتنقيب فى بلدة « كوة » المقابلة لدقنة عن بعض كتابات على جدران معبد يرجع بناؤه الى الملك طهرقا • وتشير هذه الكتابة الى ان الملك قد زار (كوة) وأنشأ وظيفة كهنوتية ، وحضر عيداً استمر سبعة أيام ، كما تدل النقوش على ان طهرقا وجه حملة ضد بلاد (ملك) التى تبدو أنها احد فروع البجة الذين كانوا يهددون « كوة » والبلاد الأخرى (١) وعلى الرغم من عدم وجود نقوش تاريخية معروفة لنا عن تلك الحقبة ، الا ان هناك بعض النقوش توضح لنا بجلاء أن تلك الحقبة كانت ذات نشاط ملحوظ فى فن البناء •

فالملك أتلاترسا ، وهو أول ملوك هذا العهد ، بدأ فى بناء معبد بجبل برقل ، تم بناؤه بواسطة خليفته الملك سنكا مانسكن • وان تماثيل الملوك الخمسة من أتلاترسا الى أماتالقا ، قد وجدت فى جبل برقل ، وأن الملكين أن لامانى وأسبلتا تركا اسميهما هناك على البناء ، الذى حسب رزرن أنه صالة التتويج ، وان هناك قطعاً من الجرانيت مبعثرة على أسبلتا وجدت فى معبد الشمس فى « مروى » •

لكن انضمام عرى الصلات بين مصر وبلاد النوبة ، كان له أثر سىء على مملكة نبتة ، فلم يفكر ملوك كوش فى إعادة فتح مصر ، بل صرفوا همهم

الى ترقية بلادهم . وبالتدريج أخذ عدد المصريين فى النوبة يقل ، وأخذت الصبغة المصرية التى كانت قد انصبغت بها البلاد تتلاشى شيئا فشيئا . ونتيجة لذلك سارت حضارة بلاد النوبة فى طريق التدهور ، وأصبحت الثقافة النباتية محاكاة للثقافة المصرية القديمة ينقصها الابتكار والروح . وفى نفس الوقت أخذت اللغة المصرية ، التى اتعشت كثيرا فى عهد فراغة نبتة ، أخذت تتلاشى ، وأصبح استعمالها قاصرا على المكاتبات فى الدواوين ، وأصبح العامية لا يعرفون عنها شيئا . ومن سوء الحظ أن لغة التخاطب التى حلت مكانها لا نعرف عنها شيئا الآن . على أن سلطان الدين أخذ يقوى على ما هو مألوف فى مثل حالات الضعف هذه ، وعظم شأن الكهنة حتى أصبحت سلطة الملك اسمية وأصبحت السلطة الفعلية فى يد الكهنة ، وكذلك كان لاقطاع الصلة بين النوبة ومصر أثر آخر سىء على اقتصاديات البلد . فقوة مملكة نبتة وثوراؤها ، كانا يعتمدان كثيرا على التجارة بين مصر والنوبة فى الدقيق والعاج والذهب . وكانت نبتة ملتقى الطرق التجارية ، فلما انقطعت التجارة فقدت نبتة مركزها الاقتصادى .

الفصل السادس مملكة مروى

وتشمل تاريخ أثيوبيا منذ بدء حكم الأسرة ٢٦ المصرية من سنة ٦٤٤ ق م الى دخول المسيحية لبلاد النوبة سنة ٥٤٥ ميلادية .

١- طرد الأشوريين من مصر : خلف بسماتيك والده نخاوفي الامارة على صا الحجر ، وأول ما عمله بسماتيك « أن التفت الى الامراء ، ففضى على ما كانوا يتمتعون به من سلطان فخضع له الجميع ، وبذلك عادت الى مصر وحدتها سنة ٦٥٤ ق م .

ولم يكد بسماتيك يحقق غرضه الأول وهو وحدة البلاد ، حتى شرع في تحقيق غرضه الأسمى ، وهو تخليصها من نير الأجانب . فانتهاز فرصة انشغال الأشوريين بالفتن في بلادهم ، وطرد ما بقى من حامياتهم وموظفيهم في مصر ، فاستردت بذلك استقلالها .

وبهذين العاملين الجليدين ، استطاع بسماتيك ، أن يحتل بين الفراغة الأوائل ، مكانا ساميا . ويعده المؤرخون مؤسس الأسرة ٢٦ ، ويعرف باسم العصر الصاوى في تاريخ مصر حيث ازدهرت فيه البلاد من جميع النواحي .

فعمل بسماتيك على تشجيع التجارة الخارجية ، فأعاد العلاقات التجارية القديمة بين مصر وسوريا ، وشجع الفينيقيين والاغريق على الاستيطان بمصر ،

بما كان يمنحهم من تسهيلات ومزايا ، وذلك كي تستفيد البلاد من نشاطهم وخبرتهم .

ولما مات بسماتيك بعد أن جلس على عرش مصر خمسين سنة ، خلفه ابنه نخاو الثاني عام ٦٠٩ ق م ، وفي عهده تم فتح فلسطين وسوريا ، ولكن ما لبث ملك بابل أن هزم المصريين وانتزع منهم تلك البلاد سنة ٦٠٥ ق م ، وانصرف نخاو الى الاهتمام بالتجارة . وفي عهد خلفه أحسن الثاني ازداد عدد الاغريق في مصر فأمرهم بالتجمع بمدينة (ثقراطيس) الواقعة غرب فرع رشيد ، وحظر عليهم الإقامة في غيرها من المدن ، وأصبحت هذه المدينة بعد فترة وجيزة اغريقية صرفة .
وفي أواخر عهد أحسن هذا ، تعرضت مصر لخطر عظيم ، وذلك بنهوض دولة الفرس وامتلاكها غرب آسيا .

الفرس وفتح مصر :

وأما خطر الفرس الذي ظهر في غرب آسيا ، تحالف أحسن الثاني ملك مصر مع أمراء آسيا الصغرى وبابل وغيرهم ، وحتى الاغريق الذين كان البحر يفصل بين بلادهم وبين آسيا ، اشتركوا في التحالف ضده ، ولكن ملك الفرس ، كان أسرع منهم تدييرا . فاقض على آسيا الصغرى وأخضعها ، ثم فتح سوريا وفلسطين .
ولما توفي كانت جيوشه على أبواب مصر ، وخلفه ابنه (قمبيز) الذي نفذ مشروع فتحها .

وبينما كان أحسن الثاني يتأهب للدفاع عن بلادهم ، أدركه الموت فخلفه ابنه بسماتيك الثالث ، وفي عهده هجم (قمبيز) ملك الفرس على مصر

سنة ٥٢٥ ق ٠ م ، ولم يمض وقت طويل حتى تمكن من الاستيلاء على منف والقبض على بسمايك وقتله . فاتته بذلك الأسرة ٢٦ . وبعد ان استقر الأمر لقمبيز في مصر ، أرسل حملة لواحة سيوة ، المعروفة وقتئذ بواحة امون ، ولكن عواصف الصحراء الرملية عصفت بالحملة ، وقضت عليها ثم جهز قمبيز حملة ثانية ، وقادها بنفسه الى النوبة ولكنها لم تكن أسعد حظا من سابقتها . وقد أثر هذا الفشل في قمبيز فاساء معاملة المصريين فسخطوا عليه وكرهوه .

ولما توفي قمبيز خلفه « دارا الأول » الذي زار مصر وحاول التقرب من المصريين ، باحترام معبوداتهم والاستكثار من الأعمال النافعة فيها .
نهاية الحكم الفارسي في مصر : وتعد هذه الفترة التي كانت مصر فيها

تحت الحكم الفارسي : عهد الأسرة ٢٧ ، التي استمرت حتى سنة ٤٠٥ ق ٠ م حيث قام أحد أمراء الدلتاء وأعلن استقلاله بالبلاد ، وكون الأسرة ٢٨ وتبعها الاسرتان ٢٩ ، ٣٠ . وقد حاول الفرس مرات عدة ، أن يعودوا لفتح مصر ، ولكن بدون جدوى ، حتى سنة ٣٤٢ ق ٠ م استطاعوا دخولها مرة ثانية وحكموها لمدة عشرة أعوام ، لقيت فيها البلاد الكثير من أنواع الظلم والعذاب ، الى ان خلصها منهم الإسكندر الأكبر .

٣ - قيام مروى : بعد ان انفصلت كوش عن مصر كان على ملوكها أن يواجهوا صعابا كثيرة لكي تبقى دولتهم مزدهرة ، ذلك لان نبتة كانت كما رأينا تعيش على التجارة التي تنقلها من الجنوب وتستبدل بها بضائع مصر كما أنها ، كانت فقيرة من النواحي الزراعية نظرا لفقر المنطقة التي كانت بها ، وحتى الصناعات التي كانت تقوم بها كانت ضعيفة ، ومعظمها آت من مصر فعندما انفصلت كوش كان عليها ان تبحث عن وسيلة أخرى تسمى بها مركزها الاقتصادي أي تسمى بها صناعاتها وتجارتها ، وكان من المستحيل

ان تتقدم هذه النواحي فيما بين الشلالين الأول والرابع . لذا نجدهم يجدون ير البحث عن مكان آخر يعتمدون عليه ويكون سهل الاتصال بنبته . فاتجهت أنظار ملوك كوش نحو الجنوب ، فوجدوا في شرق النيل - بين الشلال الخامس والسادس ، وعلى بعد أربعة أميال شمال محطة سكة حديد بلدة كبوشية - منطقة زراعية غنية ، هي التي تسمى أرض البطانة ، في امكانها أن تقدم لهم محصولات زراعية واسعة (شكل ١١)

ونظرا لأنها منطقة رعوية أيضا فهي توفر لهم عددا ضخما من الحيوان ، لذا نشأت في هذه المنطقة مدن صغيرة ، وأخذت تتوسع بسرعة ، وخاصة مدينة البجراوية ، التي تقع على نهاية وادي الهواد . ويقرب هذه المدينة وجد الحديد بكثرة ، فازدهرت بذلك الصناعة ، خاصة لوجود الوقود من الأخشاب التي تكثر بالبطانة . وساعد وجود الحديد على ازدياد أهمية هذه المنطقة ، خاصة وأن طرق المواصلات بها كانت متوفرة ، فهي تتصل بنبته عبر صحراء البيوضة ، كما تتصل بجهاث شرق السودان ، بالإضافة الى الطريق الذي يصلها بمصر عبر صحراء العظموور كما أنهم توسعوا أيضا الى الجنوب في اتجاه محاز للنيل حتى وصلوا الى الجزيرة بدليل وجود بعض آثار في أقصى جنوب الجزيرة . يتبين لنا من هذا كله أن مروى كانت منطقة غنية جدا ، لذا اهتم بها ملوك نبته اهتماما بالغا ، فنمت وتوسعت في نفس الوقت الذي كانت فيه نبته نفسها تنهار وتتأخر . وأصبحت مجموعة مدن مروى والبجراوية وكبوشية (شكل ١١) هي المركز الغني للملكة ، مما جعل ملوك نبته يجعلون عليها حاكما خاصا من أفراد الأسرة المالكة . وخلال فترة طويلة ظلت نبته هي العاصمة السياسية للدولة « ولكننا نجد بعد فترة أن العاصمة قد انتقلت الى مروى . ويظن ان هذا حدث في عهد الملك أن لاماي (٥٣٨ - ٥٣٣ ق م) ، كما يظن أن أسباب هذا الانتقال ترجع الى قوة حكام مروى ، والى أن مروى

كانت أقرب الى السودان الاوسط ، حيث الأمطار الصيفية المنتظمة ،
وهي التي مكنت تلك المحاصيل الهائلة من النمو .
والسبب الرئيسى للتفكير فى نقل العاصمة من نبتة الى مروى قد
حدث فى القرن السادس وليس فى القرن ١٤ ق ٠ م ، وكان هذا مباشرة بعد
عهد الملك ماليناقن « ٥٥٣ — ٥٣٨ ق ٠ م » ويقول الأثرى جارستانج :
لاشك أن ضواحي مروى قد امتدت حتى الكابوشية لما وجدناه من مواقع
بعض المعابد وأطلال من جدران القصور ، التي يمكن أن يرجع تاريخها
الى عهد الملك طهرقا وفى الشرق مباشرة من تلك الأطلال ، يمتد أيضا
نحو الشرق مساحة قدرها ١٢٠ مترا خرائب من الأحجار الرملية ، هي
أطلال معبد آمون . الذى يظن أنه بنى فى عهد الملك أسبيلتا « ٥٩٣ —
٥٦٨ ق ٠ م » ، وتدل هذه الاطلال على انها كانت مبنية على نظام مصرى
صميم ، كان هو الحال فى المعبد العظيم الموجود فى نبتة ، والذى يقع
تحت جبل برقل .

وعلى كلا الجانبين شمالا وجنوبا من موقع المعبد ، تمتد مسافة نصف
ميل تقريبا أطلال تلك المدينة القديمة ، كما أنها تمتد كذلك نحو الشرق حتى
تصل الى خط السكة الحديد ، وتقع فيها كذلك بعض المباني السودانية .
وتلكم هي الصورة الوحيدة ، التي يمكن أن نستدل منها على تلك
العاصمة الشهيرة ، لذلك المكان ، وما هي الا صف من المباني المقدمة
بالآجر ، ومعظمها يقع نحو الغرب ، حيث كانت المدينة .
وأما فى الشرق من خط السكة الحديد فتوجد أطلال معبدين صغيرين ،
أو ثلاثة . ويحتمل ان يرجع تاريخ أحدهما الى ما قبل سقوط مروى
بقرون عديدة . ويبدو أن هذا المعبد كان مستقوا بقضبان حديدية ،
ولو صح هذا فما لاشك فيه أن هذا يعتبر دليلا واضحا على قيام الصناعة
الحديدية فى السودان فى مثل هذا الوقت المبكر .

حقا ان هناك قليلا من الشك في انه عن طريق مروى انتشرت معرفة صناعة الحديد شرقا وغربا في ربوع افريقية الزنجية . وفي هذا الوادى حيث توجد مروى أقيمت المصطبة التى أقيم عليها معبد الشمس الشهير ، الذى وصفه هيردوت المؤرخ الاغريقى المشهور بقوله : « ان مصطبة الشمس تشبه مرعى خارج المدينة » وهذا وصف دقيق للموقع الذى بنى عليه معبد الشمس ، وفي هذا الموقع الى أيامنا هذه تنمو الحشاش والأعشاب ، أكثر من الوادى المحيط به .

ووراء هذا المعبد توجد مقبرة الطلال ، التى يوجد بها الأهرامات الكئيبية ، لتى دفن فيها أعيان مروى طيلة حياتها . وان ما عندنا من المعلومات التاريخية عن هذه الفترة لقليل وان أسماء الملوک وتتابعهم معروف الينا من حفريات رزور ، الذى قام بحفريات اهراماتهم فى نورى .

واليك ثبت بهذه الأسماء ومدة حكم كل منهم (١) .

- ١ - أنا لماى ٥٣٨ - ٥٣٣ ق.م.
- ٢ - أمانى ناتاك لبت ٥٣٣ - ٥١٣ ق.م.
- ٣ - كركمانى ٥١٣ - ٥٠٣ ق.م.
- ٤ - أمانى أستاباكا ٥٠٣ - ٤٧٨ ق.م.
- ٥ - سى أسبيكا ٤٧٨ - ٤٥٨ ق.م.
- ٦ - ناسا خاما ٤٥٨ - ٤٥٣ ق.م.
- ٧ - مالى ويا مانى ٤٥٣ - ٤٢٣ ق.م.
- ٨ - تالاخا مانى ٤٢٣ - ٤١٨ ق.م.

٩ - أمان نيت يريك ٤١٨ - ٣٩٨ ق ٥٠٠

١٠ - بسكا كرون ٣٩٨ - ٣٦٢ ق ٥٠٠

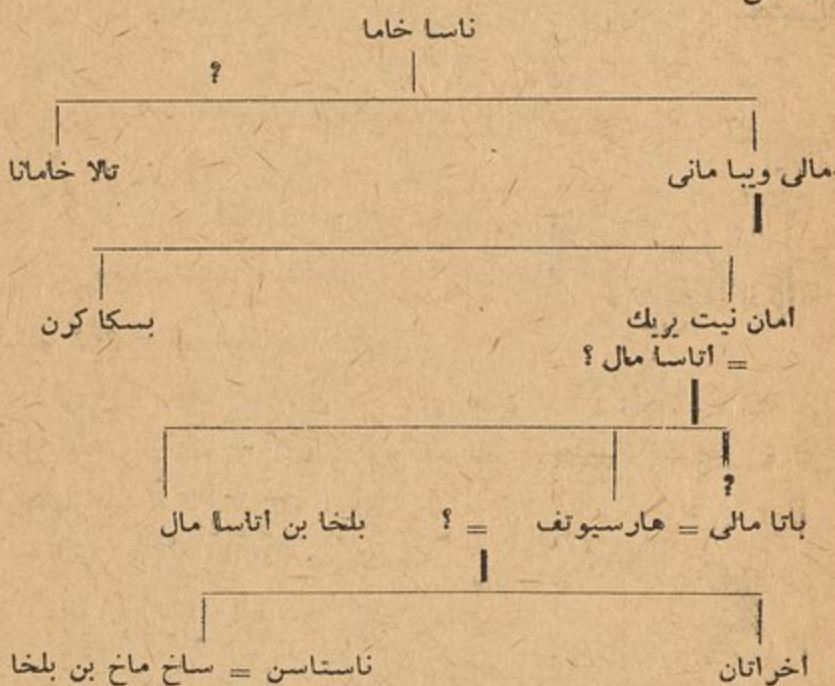
١١ - ملك مجهول دفن في هرم الكورو ٦٦٢ - ٣٤٢ ق ٥٠٠

١٢ - آخراتان ٣٤٢ - ٣٢٨ ق ٥٠٠

١٣ - ناستاسن ٣٢٨ - ٣٠٨ ق ٥٠٠

ومن القائمة الآتية يمكن معرفة العلاقة بين الملوك من ناسا ما الى

ناستاسن .



حالة السودان في العهد الروي

ومن البضائع التي تخلفت من اللصوص في القبور الملكية ، يمكننا أن نتبع التدهور التدريجي، الذي حدث في هذا الوقت في الثقافة التي ورثت من مصر فقد كان هناك انحطاط ملحوظ في الثقافة المصرية الهيروغليفية في

عهد الملك مالى ويا مانى (٤٥٣ - ٤٢٣ ق م) . فيلاحظ طوال عهده أن صناعة الفخار قد انحطت ، وصناعة الصباغة كانت غير مهذبة ، ولم تكن هناك أى أدوات تدل على الفخامة والرشاقة ، والأواني الحجرية لم تعد تصنع محليا ، ماعدا بعض أوان مصنوعة من الألباستر ، المستورد من مصر ، وتدهورت كذلك المعابد الصغيرة الملحقة بالأهرام وبعد قليل أصبحت اللغة المصرية غير معروفة تماما كما ذكرنا . وثلاثة من خمسة أسماء ملكية قد ثبتت ونقلت من ملك الى ملك كما أنها جزء من الألقاب الملكية .

وكل ما امكن ان نستقيه من معلومات عن هذه الفترة كان عن طريق ثلاثة نقوش . كان أقدمها النقوش العظيمة التى ترجع الى عهد الملك أمان نيت يربك (٤١٨ - ٣٩٨ ق م) وكانت منقوشة على جدران معبد طهرقا فى « كوة » وقد كانت منقوشة باللغة الهيروغليفية المصرية . ومن الواضح أنه بالرغم من ان اللغة المصرية كانت اللغة الرسمية فى الكتابة ، لكنها لم تكن لغة الحديث والكلام .

وفى هذا النقش نعت الملك « بابن آمون » ، كما وصفت نبتة بأنها التل المقدس لأرض ، النحسى ، وعدد النقش الحملات التأديبية التى أرسلها الملك ضد القبائل المغيرة وخاصة قبائل البجة .

والنقش الثانى كان خاصا بالملك هارسيوتف (٣٩٧ - ٣٦٢ ق م) ، وكان مؤرخ بالسنة الخامسة والثلاثين من عهده . وقد وجد بجبل برقل وهو الآن بمتحف القاهرة . وعليه ذكر هذا الملك تسع غزوات ، وذكر أسبباء أماكن مختلفة . وكانت الحملات الثلاث الأولى منها ضد قبائل « الرهرة » الذين كانوا قد غزوا جزيرة مروى فى عهدين سابقين « وحملة أخرى ضد ثوار « أكنا » .

وبالجملة كانت كلها حملات تأديبية ضد القبائل المعادية . ومن ضمن هذا

النقش ذكر الملك أنه حلم بأن الإله آمون قد منحه العرش ، لذلك قام برحلة إلى نبتة حيث منحه آمون العرش فعلا . وذكر في النقش أيضا نشاطه في فن البناء في نبتة وغيرها « وكذلك الاحتفالات التي أقامتها في اثنتي عشرة مدينة .

والنقش الثالث وينسب إلى الملك نستاسن (٣٢٨ - ٣٠٨ ق م) ، وهو آخر الملوك الذين دفنوا في نوري ، وقد اعتلى العرش تقريبا في الوقت الذي ضم فيه الإسكندر الأكبر مصر إلى إمبراطوريته . وقد عثر على هذا النقش الأثري لبسس في جبل برقل وأهداه إلى متحف برلين ، وقد ذكر فيه أن استدعى من مروى إلى نبتة ، حيث منحه لإلهة آمون الملك على (٤٠٤١) التي يحتمل أن تكون (ألوا) البلاد التي تحيط بمدينة الخرطوم ، والتي كانت عاصمتها « سوبا » على بعد ١٢ ميلا من النيل الأزرق .

وكانت محاولات لعمل حفريات (سوبا) ، ويدلنا على ذلك وجود تمثال لخروف في كنيسة الخرطوم منقوش عليه باللغة المروية الهيروغليفية ، وقد أحضر هذا التمثال غوردون من سوبا الك الخرطوم . وتدل النقوش التي عليه أن « سوبا » مدينة عامرة .

وكما فعل الملك هارسيوتف ، فإن الملك نستاسن قد قام بزيارة عدة معابد كما قام بانفاذ عدة حملات تأديبية ، يستدل منها على أن حالة الأمن والاستقرار قد أخذت في التدهور .

ولما كشف رزفر المقبرة الشمالية في مروى ، أبان لنا من حفرياته في هذه المقبرة مجموعة الملوك الآتية أسماؤهم .

١ - أماتنخا ٢٥٥ - ٢٤٢ ق م .

٢ - هنيكا ٢٤٢ - ٢٢٥ ق م .

- ٣ — أركماني ٢٢٥ — ٢٠٠ ق م.
 - ٤ — أديخالا ماني ٢٠٠ — ١٨٠ ق م.
 - ٥ — ناكي رينسان ١٨٠ — ١٦٠ ق م.
 - ٦ — الملكة نهركا ١٦٠ — ١٥٠ ق م.
 - ٧ — شنك داخيتي ١٥٠ — ١٢٥ ق م.
 - ٨ — أهرام (رقم ١٣) ١٢٥ — ١٠٠ ق م.
 - ٩ — تنيداماني (أهرام رقم ٢٠) ١٠٠ — ٨٠ ق م.
 - ١٠ — تريتيكاس «؟ أهرام رقم ٢١» ٨٠ — ٦٠ ق م.
 - ١١ — الملكة أماني ريناس ٦٠ — ٤٥ ق م.
 - ١٢ — أكيني داد «لو كان قد اعتلى العرش فعلا»
 - ١٣ — الملكة أماني شاخيني «أهرام رقم ٦» ٤٥ — ٢٥ ق م.
 - ١٤ — الملكة نلدماك (أهرام برقل السادس)
 - ١٥ — أماني خبالي؟ (أهرام رقم ٢)
 - ١٦ — نناكا ماني (أهرام رقم ٢٢) ١٥ ق م — ١٥ ق م — ١٥ م
 - ١٧ — أمانا تيري (أهرام رقم ١) ١٥ م — ١٥ م
- وان تتابع هؤلاء الحكام السبعة والعشرون الذين أتوا بعدهم في المقبرة الشمالية قد كشف النقاب عنه بواسطة مقارنة الأهرامات ومحتوياتها مقارنة مفصلة .
- وإذا حكمنا على هذه الأهرامات من حيث حجمها وخاصة بنائها، وجدنا أن حكم ارجامينس وخلفائه الخمسة كان أكثر العهود ازدهاراً فالنقوش التي وجدت في معابد فيلة ودكة والنوبة السفلى، ترينا أن جامينس كان معاصراً لبطليموس الرابع في مصر . ففى معبد فيلة نجد أن أقدم أبهائه الداخلية كانت من عمل بطليموس الرابع، وان بهو المدخل كان من عمل

ارجامينس • وهذا الجزء الذى قام به ارجامينس مشوه فى أحد أجزائه
وقد أتمه بعد ان كبره فى أحد جوانبه بطليموس الخامس •

بينما فى « دكة » فى الجهة المضادة لمدخل وادى العلاقى ، قد أقيم مثل
هذا البناء ، ولكن فى نظام مغاير • فالمدخل الداخلى قد بناه ارجامينس ،
والبهو الخارجى قد بناه بطليموس الرابع والمظلة التى فى المدخل قد بناها
بطليموس التاسع • وكلا المعبدین قد أضاف اليهما الامبراطور أغسطس
شيئا من المباني •

ويمكننا أن نستنتج من ذلك أن الاتصال بين مصر وكوش عن طريق
النوبة السفلى ، كان أخويا فى عهد بطليموس الرابع ، وأما فى عهد خلفه
بطليموس الخامس ، فقد دل تشويه أختام ارجامينس فى فيلة ، عل تأخر
وقتى فى العلاقات بين البلدين • ومن المحتمل أن يكون تأخر العلاقات هذا
من أسباب قيام الثورة الخطيرة التى حدثت فى مصر العليا فى أواخر حكم
بطليموس الرابع •

والحقيقة القائلة بأن بعض الاغريق من سيرين قد نقشوا أسماءهم —
فى حوالى ذلك الوقت — على عمود فى معبد هوهين ، تبين احتمال وجود
احتلال مؤقت للمنطقة كلها بواسطة قوات بطلمية • ولكن نقوشا تنسب
انى بطليموس السابع وأديخالا مانى (٢٠٠ — ١٨٠ ق م) و بطليموس
الثامن فى معبد عند (Ebod) ، بين فيلة وكلابشة ، تشير الى استئناف
العلاقات الودية فى الطرف الشمالى للنوبة السفلى • واستمرت هذه
العلاقات الودية بين مصر وروم وربما مع غيرها مع جهات العالم الأخرى ،
وذلك طوال عهد الملك ارجامينس وخلفه المباشر • ولعل الثقافة المصرية ،
أخذت فى هذا الوقت تتمتع نوعا ، ذلك لأن ارجامينس استعان بأحد

الفنانين المصريين في عمل التحلية الخاصة بهرمة (١) ، ومن المحتمل أن يكون هذا آخر عهد استعمال اللغة المصرية القديمة في كوش . وبالتالي أول عهد اختراع النقوش المروية المحضة .

وكانت تحاول تحلية هرم الملكة تاهيركا (١٦٠ - ١٥٠ ق م) بالكتابة الهيروغليفية فاشلة ، وذلك لأن النقوش المروية أصبحت هي المعروفة بعد أن فقد الفنانون معرفتهم للهيروغليفية .

والهرم الذي دفن فيه الملوك الستة خلفاء ارجا مينس ، يبين انحطاطا ظاهرا في الحجم وفي شكل حجرة الدفن (٢) .

وبالجملة يمكن ان نقول : ان البطالسة قد مدوا حدود مصر جنوبا حتى المحرقة على نحو ٨٠ ميلا جنوب الشلال الأول وتركوا من الآثار هياكل المحرقة والكلابشة والدكة في النوبة السفلى ، وهيكل جزيرة فيلة الجميلة المعروفة بقصر أنس الوجود .

أما الرومان فبعد أن احتلوا مصر حتى أسوان عملوا على تأمين حدودهم الجنوبية ، بأن دخلوا في اتفاق مع رؤساء النوبة على أن يكف أهل النوبة عن غاراتهم على حدود مصر ، وأن يترك الرومان أهل النوبة وشأنهم يحكمون بلادهم .

ولما لم يحافظ أهل النوبة على عهدهم وهاجموا حدود مصر الجنوبية ودخلوا أسوان يسلبون وينهبون ، واتزعوا تمثال الامبراطور أغسطس قيصر من وسط المدينة حملوه الى بلادهم ، لما فعل المرويون هذا هاجمهم وطالت الحرب بين الطرفين .

(١) رزرنر ١٩٢٣ / ٤٢ - ٤٣ .

(٢) المصدر نفسه ١٩٢٣ / ٦٩ .

وكان أهم هذه الحروب تلك التي دارت بين الكنداكة ملكة مروى وبين بترونيوس حاكم مصر من قبل أغسطس قيصر .
وقد تمكن هذا الحاكم من دحر الكنداكة ومتابعة جيوشها حتى مدينة نبتة حيث دمرها تدميرا . ولكنه لم يقيم بأكثر من هذا إذ اكتفى بحملته الانتقامية ، ورجع الى مصر دون أن يحتل النوبة . وعلى الرغم من اكتفائه بهذا القدر فقد أصبحت حكومة الامبراطورية الرومانية تفهم ، أن السودان جزء من امبراطوريتها ، للحكومة عليه من الحقوق ما لأجزاء الامبراطورية الاخرى ، وقد ساق هذا الفهم الى استفادة السودان من مشاريع حكومة القسطنطينية ، الارشالية الخاصة بالتبشير للديانة المسيحية على ما سنذكره بعد ، وفوق ذلك تسربت الفنون الرومانية المعمارية الى مملكة مروى كما تشهد بذلك آثار النقعة وغيرها .

فوجدت بعض هذه الآثار في هزم تتاكامانى (١٥٠ ق م - ١٥٠ م) وزوجته أما تيرى (١٥٠ م - ١٥٠ م) ومعبد الأسد في النقعة والكشك الواقع بالقرب منها وتقع هذه في أرض البطانة على بعد ٣٥ ميلا من شندى . وقد روى كتاب اليونان والرومان أخبار اتصال مملكة مروى ببلادهم . وبالرغم ان هؤلاء قد بنوا كتاباتهم على النقل ، الا أننا نجد بعض المعلومات المفيدة ، والتي تؤيدها الآثار في كتاباتهم .

ونسوق هنا طرفا من كتاباتهم عسى أن يلقي ضوءا على حوادث عهد مروى ، لما أن فشلنا في الوصول الى ما نريد من معلومات من الآثار . وسنجد أن كتابات استريو اليونانى أقيم بكثير من أخبار ديدورس الاغريقى وبلاينى الرومانى ، على أن ديدورس كان يعرف الكثير عن النوبة (١) .

يستفاد من كتاباته أنه كان يسمى أهل بلاد السودان الأثيوبيين ويذكر عنهم أنهم أول الخلق على ظهر الأرض ، وانهم أول من عبد الآلهة وقدم لها القرابين ، وان قوانينهم وكتاباتهم مصرية ، ثم استرسل بعد ذلك في وصف السكان وطرق معيشتهم ، وخلط كثيرا فيما قال ، ولا داعي لذكر وصفه لأنه بعيد كل البعد عن الحقيقة .

أما استرابو Strabo

فيقول : ان الجزء الأكبر من السودان غير صالح للسكنى ، ولا يصلح للحياة فيه الا الاراضى التى يغمرها فيضان النيل ، ثم يستطرد فيقول : وهناك نهران يصبان فى النيل ، وينبعان من بحيرات فى الشرق . أما النيل الرئيسى فينبع من الجنوب ويمتلىء النيل عندما يفيض النهر فى أشهر الصيف وفوق ملتقى هذين النهرين تقوم مدينة مروى ، وذكر أن الأهالى يجلسون ملوكهم ، ويضعونهم موضع الآلهة ، ويظل ملوكهم فى أغلب الأوقات محتجين فى قصورهم . واستطرد يقول : وتوجد مناجم للنحاس والذهب والأحجار الثمينة .

أما بلينى Pliny

فقد كتب بعد ديودورس واسترابو ، ويظهر أنه كان أقل منهما المأما بأحوال البلاد ، فيحدثنا عن أناس غريبيين بلا أفوف وآخرين بلا شفاء أو بلا ألسنة ، ويقول ان نبتة على مسيرة ثلاثة أيام من البحر الأحمر ، وان أثيوبيا مليئة بالذهب .

من ذلك كله ، نرى أن الكتاب اليونان والرومان لم يتمكنوا من أن

يعطونها فكرة صحيحة واضحة عن بلاد السودان في تلك الفترة ، وان كنا قد استنتجنا من كتاباتهم بعض المعلومات النافعة ، فعرفنا أن تلك البلاد كانت غنية بالمعادن ، وأنها كانت متأثرة بحضارة قدماء المصريين .

تدهور دولة مروى (١) :

ظلت دولة مروى قائمة مدة طويلة من الزمن ، ولكن عوامل هامة تعمل للقضاء عليها منذ البداية . ولعل انتقال عاصمة اثيوبيا جنوبا ، وبعدها عن مصر ، جعل اتصال العالم الشمالى بها عسيرا ، الامر الذى جعل مدينة اثيوبيا تنحصر فى نطاق محلى ضيق ، وتعيش على ما تنتجه محليا ، كما ان هذا البعد من مصر جعل الاتصال بين اثيوبيا وبين الدول التى حكمت مصر خفيفا بسيطا .

فالفرس قد فشلوا فى دخول السودان ، وكذلك كان نصيب الرومان والبطالسة لم يتمكنوا من مد حدودهم جنوب المحرقة . واتصالات هؤلاء وأولئك بأثيوبيا لم تكن من النوع الذى يترك أثرا بالغا ، وان لم يخل من أثر . فقد نتج من اتصال الرومان بمروى نشاط فى العمارة ملحوظ كما سبق أن عرفنا ذلك .

هكذا لم تجد دولة مروى ما يبعث فيها الحيوية والابتكار من عوامل خارجية أو داخلية ، فأخذت تأكل نفسها . الأمر الذى أدى الى تدهورها ، ودخولها بالتدريج فى عالم الوهم والخيال بالنسبة للعالم المتمدن ، خاصة فى عهدها الأخير . وأخذت دولة مروى تنحط هكذا بين القرنين الأول والرابع وتوالت هجمات السود من الجنوب الغربى «النبوية» ، وبالجملة من الشرق ،

على دولة مروى ، فاختلفت اقتصادياتها وساء موقفها السياسى . فانقسمت
دولة مروى الى قسمين : قسم فى الشمال يحكم من نبتة ، والقسم
الجنوبى يحكم من مروى . وعلى هذا القسم الثانى أتت مملكة أكسوم
الجبشية « التى قامت فى شمال الحبشة على بضعة أميال من « عدوة »
جوالى سنة ١٣٠٥ م ، على يد الملك الأثيوبى المسيحى ، الذى قام بحملة
على جزيرة مروى ، شمال أرض البطانة » ، وحطم مدينة مروى ، وأحرق
مخازن الذرة والقطن فيها . كما خرب مدينة علوة بالقرب من الخرطوم ،
وعاد أدراجه مكتفيا بضم بعض الأجزاء الشرقية من مملكة مروى الى
ملكه .

الفصل السابع

السودان والمسيحية

١ - ظهور المسيحية : لما ظهر المسيح عليه السلام في فلسطين ، وجعل يجوب البلاد ويدعو الى الاخاء والمساواة بين الناس ، ويحض على طاعة الله والابتعاد عن الخطايا ، حقد عليه كبار اليهود ، وخشوا نتيجة دعوته ، واستعانوا عليه بالحكومة الرومانية ، التي كانت تسيطر على فلسطين في ذلك الحين ، فكان موضع اضطهادها وتعذيبها ، ولكن المسيحية مع ذلك انتشرت في آسيا الصغرى واليونان ومصر ، بل وفي روما نفسها وسارع الناس الى اعتناق الدين الجديد ، ونبذوا عبادة الأوثان لأن عقولهم فضحت فأدركوا أنها لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا .

٢ - اضطهاد المسيحية : ولكن الحكومة الرومانية عملت على محاربة المسيحية ، إذ رأت في انتشارها ما يهدد وحدة الامبراطورية ، لأن المسيحيين رفضوا عبادة الأباطرة ، المنصوبة في المعابد ، وعملوا بكل الوسائل على نشر دينهم في أنحاء البلاد ، منكرين كل الديانات الوثنية القائمة فيها ، وهي دين الآباء والأجداد .

وجاء الدين المسيحي بمبادئ جديدة سامية ، لم ترق في أعين الأشراف لذلك اتخذت حكومة روما أقصى الوسائل ، في تعذيب المسيحيين من حرق واعدام وتنكيل ، وظهر ذلك بأبشع صورة في عهد الامبراطور « نيرون » كما بلغ هذا الاضطهاد أقصى حدوده ، وخاصة بمصر في عهد الامبراطور « دقلد يانوس » .

حدث في عهد فيرون عام ٦٤ ق.م ، أن شبت النيران في روما فأحرقت جزءا كبيرا منها ، واتهم المسيحيون بذلك فقام الناس يعذبون أنصار المسيحية بأفظع الطرق . أما الامبراطور دقلد يانوس ، فقد أصدر أمرا بهدم كنائس المسيحيين ، وقبض على آلاف منهم ، وارادعهم السجن ، وقتل نحو ١٤٤ الفا أكثرهم من المصريين .

٣ — انتصار المسيحية : لم يضعف المسيحيون ، ولم يرتدوا عن دينهم

رغم ما لاقوه من تعذيب ، وتقتيل وسرعان ما جاءهم النصر ، على يد الامبراطور قسطنطين ، فأوقف الاضطهاد ، وجعل المسيحية الدين الرسمي ثم أصدر احد الأباطرة مرسوما عام ٣٨٠ م حتم اعتناق المسيحية ، وحرم عبادة الأوثان ، وأغلق معابدها « فانتشر الدين المسيحي بالتدريج في انحاء الامبراطورية . وتأسست كنائس في روما والاسكندرية وغيرها من مدن الامبراطورية . وسار للكنيسة المسيحية أنظمة وموظفون ، كان من أعظمهم شأنًا « بطريق روما » الذي أطلق عليه فيما بعد لقب « بابا »

٤ — المسيحية في مصر : دخلت المسيحية مصر في العصر الروماني ،

فاعتنقها اليهود في الاسكندرية وانتشرت بين الاغريق ثم بين المصريين . ولما قاومت الحكومة الرومانية انتشار المسيحية ، وبلغ الاضطهاد أقصاه زمن الامبراطور دقلد يانوس ، أصاب مسيحي مصر منه ، صنوف العذاب لأنهم أبوا ان يقدسوه . وكان كلما ازداد في تعذيبهم ، ازدادوا تمسكا بدينهم ، فأسرف في ذبحهم ، وجعلوا اول حكمه « ٢٩ أغسطس سنة ٢٨٤ م » مبدأ السنة القبطية ، يحسبون منه السنين والأيام من هذا التاريخ الى يومنا هذا .

وظل أقباط مصر في عذاب واضطهاد حتى تولى الامبراطور قسطنطين وجعل المسيحية ، دين الدولة الرسمي ، كما تقدم .

٥ — دخول المسيحية في السودان :

عرفنا فيما سبق أن دولة مروى قد سقطت في القرن الرابع الميلادي حوالي سنة ٣٥٠ م . وكان من نتيجة هذا أن رجعت بلاد السودان الى حالة فوضى واضطراب ، حيث انقسمت الى ممالك صغيرة متنافرة . ونظرا لأن الكتابة الهيروغليفية المصرية قد ضاعت على أيام مروى الأخيرة، لم يصل إلينا من أخبار هذه الفترة الا النزر اليسير ، وكل ما يمكن أن نعرفه هو أن أباطرة القسطنطينية استمروا يفهمون أن البلاد النوبة ما زالت جزءا من امبراطوريتهم ، وأنهم مسئولون عنها ، وذلك نتيجة لما كان قد قام بين الرومان في مصر ، وبين رؤساء النوبة من اتفاقية — عرضنا لها فيما سبق — وللحملات الانتقامية التي وجهها بترونيوس حاكم مصر الروماني على النوبة وتدميره لنبته ، استمر أباطرة القسطنطينية ورجالها على هذا الفهم ، فذكروا بلاد النوبة ولم ينسوا أن يعملوا على نشر المسيحية فيها ، لما أتت الفرصة على عهد الامبراطور جستيا ووزجته ثيودورا ، التي كانت قد تحمست لنشر المسيحية .

أما عن دخول المسيحية بلاد السودان ، فاننا قد عرفنا أن الامبراطور قسطنطين قد جعل المسيحية الدين الرسمي للدولة ، ونتيجة لذلك تقدمت هذه الديانة في مصر تقدما كبيرا ، حتى أصبحت الغالبية العظمى حوالي أواسط القرن الخامس تدين بالدين المسيحي . وتبع ذلك زوال الديانة المصرية القديمة وكما وفدت على السودان وثنية مصر ، فقد وفد عليه كذلك الدين الجديد عن طريقها ، فالمسيحية لم تدخل السودان عن طريق الحبشة ، وانما عن طريق مصر ، فقد أخذت النوبة تتأثر بالدين الجديد . فالمسيحيون الذين كانوا يفرون من الاضطهاد ، الذي كانوا

يلاقونه في مصر ، كانوا يلجأون لبلاد النوبة ، وهنا تهيأ لهم نشر آرائهم .
كما كان التجار الذين كانوا يعملون بين النوبة ومصر ، كانوا ينقلون معهم
بعض آراء المسيحيين . وهكذا دخلت بذور المسيحية بلاد النوبة ، ولكن
العمل المنظم لنشر المسيحية في بلاد السودان ، والذي له الأثر الباقي ، لم
يكن من نصيب المضطهدين ، ولا التجار ولكنه كان من عمل المبشرين
النظاميين ، ممن كانوا يعملون في مصر ودخلوا النوبة عن طريق مصر ،
وهالك قصة هؤلاء المبشرين الذين نشروا المسيحية في بلاد السودان .

رسل ثيودورا وجستنيان :

لما سقطت الامبراطورية الغربية على يد المتبربرين عام ٤٧٦ م ، أصبحت
الدولة الرومانية الشرقية (الامبراطورية البيزنطية) صاحبة الشأن في
بلاد الشرق التابعة للامبراطورية الرومانية ، وكانت الديانة المسيحية قد
انتشرت في هذه البلاد ، واستولت على مشاعر السكان وعقولهم ، وقوى
الشعور الديني الى حد كبير ، لما كثرت غارات المتبربرين ، واضطربت
سياسة الامبراطورية الرومانية ، حتى أصبح شغل لناس الشاغل تفضيل
هذا المذهب الديني على غيره ، فكنت بدلا من أن ترى الاحزاب السياسية
تتضارب وتترشق ، يأخذك تنافس الاحزاب الدينية ، الذي كان كثيرا
ما يؤدي الى التصادم والعراك في شوارع المدن ومدينة القسطنطينية بالذات
وفي القرن السادس الميلادي عندما كان التعصب الديني قد وصل موجة
عالية ، تربع على عرش الامبراطورية الرومانية الشرقية (الامبراطورية
البيزنطية) ، الامبراطور العظيم جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥ م) ، وكان
لجستنيان هذا زوجة تدعى ثيودورا ، لحقها ما لحق الناس ، فاقبلت من
حياة لهو وعبث الى امرأة متدينة متحمسة لتدين تشجع الارساليات المسيحية

التي تقوم بنشر الدين المسيحي ، وتعمل على اعلاء كلمة الدين . ولواحدة من هذه الارساليات ، التي بعثت بها ثيودورا لنشر المسيحية ، يرجع الفضل الى دخول بلاد السودان في المسيحية .

ذكرنا سابقا أن الرأي الذي كان سائدا في لدوائر الرومانية ، ان بلاد السودان جزء من الامبراطورية الرومانية . وقد ساق هذا الاعتقاد القس جوليان الى التفكير في أمر ادخال أهل تلك البلاد في الدين المسيحي ، فبث رغبته الى الامبراطورة ثيودورا ، التي نقلت حديث القس الى الامبراطور جستنيان . ولما علم جستنيان بالأمر سارع الى إصدار أمره الى مندوبي مذهبه في مصر بارسال بعثة تبشيرية الى بلاد النوبة . وحيث أن ثيودورا كانت تدين بمذهب زوجها ، فسارعت هي بدورها الى ايضاد جوليان بنشر المسيحية على مذهبها ، وقد أفلح جوليان في دخول النوبة قبل بعثة جستنيان ، فحاز بذلك السبق في مهمته .

وفي حوالي سنة ٥٤٠ م وصل القس جوليان الى أثيوبيا مبعوثا من الامبراطورة ثيودورا لنشر المسيحية في بلاد النوبة «أثيوبيا» ، وقد بقى هذا القس في تلك البلاد حوالي سنتين ، استطاع فيهما أن يعمل على نشر المسيحية بين الأهالي . وبعد ذلك عاد الى بلاده ، بعدما خطف وراءه من ينوب عنه في العمل على تثبيت ما أمكنه عمله .

ظلت بلاد النوبة الى سنة ٥٦٩ بلا أسقف ، أي حوالي ثمانية وعشرين سنة ، ثم وفد عليها الأسقف لونجينس ، وبني كنيسة في هذه البلاد ، واستمر يواصل اعمال من سبقوه لمدة خمس سنوات ، حتى دخلت كل مملكة النوبة في الدين المسيحي .

أما مملكة المغرة فيظن ان القسس الذين بعث بهم جستنيان قد اتخذوها

منطقة لتبشيرهم ، اذ تم دخول أهلها المسيحية على نفس العهد الذى دبلت فيه مملكة النوبة المسيحية .

وبقيت مملكة علوة على وثبيتها حتى عاد الاستقف لو نجينس عام ٥٨٠م الى بلاد النوبة ، ومنها سار جنوبا بدعوة من ملوك علوة ، فدخل مملكتهم ، وعمل فيها على نشر الدين المسيحى (شكل ١٤) : وعلى عهد لو نجينس ، هذا حولت كثير من المعابد الوثنية فى مملكتى النوبة وعلوة الى كنائس ، بنيت معاقل جديدة من كنائس وأديرة للدين المسيحى فى العصور التالية (شكل ١٤) وآثار العهد المسيحى منتشرة فى كل الممالك المسيحية الثلاث (النوبة والمغرة وعلوة) ، وخاصة فى مركز حلفا ومروى ودقلا ، فالى الشمال من حلفا نجد كنيستين قبظيتين فى مرة وفرس ، كما كانت تقوم كنائس فى أدندان وأرقين ودييرة . والى الجنوب من حلفا نجد بقايا الكنائس فى بوهين وجزيرة ساي وصادقا .

وفى مركز مروى - دقلا ، نجد ان الأثر المسيحى الرئيسى هو الجامع القديم فى دقلا العجوز ، الذى حول من كنيسة الى مسجد فى العهد الاسلامى الأول وكذلك نجد فى هذا المركز بقايا مبانى الدير الصحراوى فى وادى الغزاة فى الصحراء فى منطقة مروى الحالية ، أما مابقى من آثار مملكة علوة المسيحية فقليل ، بالنسبة لأن الأمطار قد أزالت معظم آثار هذه المملكة ، ولم تبق الا آثار مسيحية بسيطة فى سوبا وفى القطينة وبرى والكاملين وسنار ، وود الحداد (شكل ١٤) .

واستمرت المسيحية تنتشر هكذا حتى اذا وصلنا الى نهاية القرن السادس الميلادى ألفينا الدين المسيحى يربط بين سكان الممالك الثلاث وبقي البجة فى جملتهم على ما كانوا عليه من الوثنية .

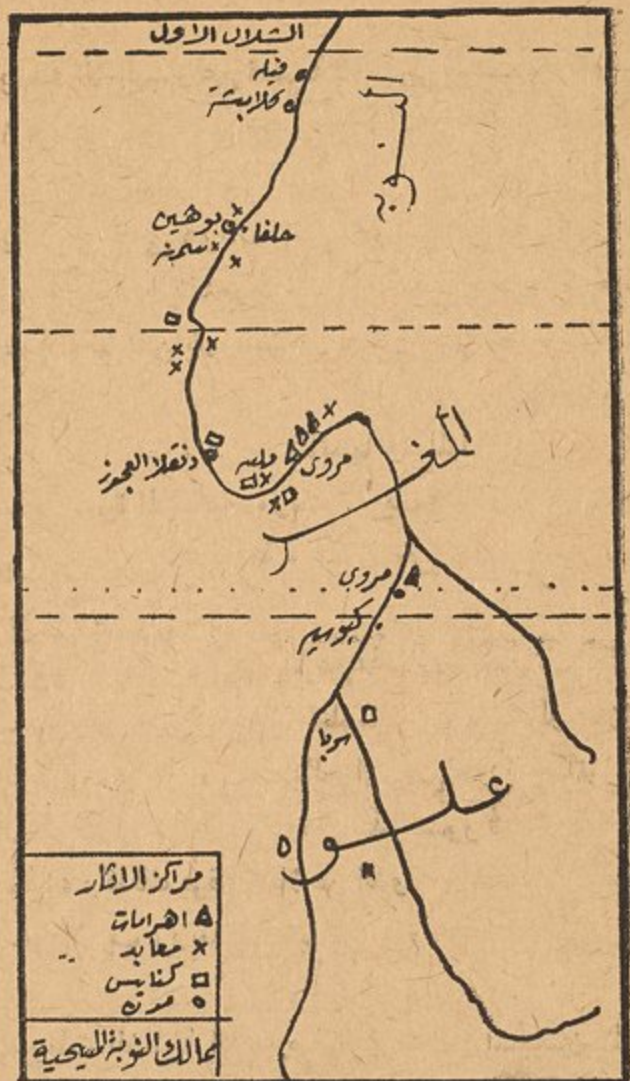
وفى البلاد التى تمسحت (دخلت فى الدين المسيحى) ، استطاع رجال

الكنيسة أن يجعلوا من اللغة النوبية لغة كتابية بالحروف الاغريقية واستعملوها في أعمالهم الرسمية ، كما ترجموا بعض أجزاء الكتاب المقدس الى اللغة النوبية . وكذلك استعملت اللغتان الاغريقية والقبطية في المراسيم الدينية ، ودخلت الكتب القبطية بلاد النوبة على ايدى القسس القبط والرهبان . أصبح دين بلاد أثيوبيا ، وما وراءها من بلاد السودان الدين المسيحي متصلا روحيا بالاسكندرية مقر عاهل المسيحية في مصر والحيشة ، التي كانت قد تنصرت قبل بلاد السودان .

قيام مملكتى النوبة المسيحيتين (١) :

وبمرور الزمن أخذت المسيحية تتقدم في بلاد السودان نحو الجنوب حتى وصلت اقليم الجزيرة . وكان الدين الجديد عاملا مهما من عوامل التوحيد ، فقد ألفت بين قبائل بلاد السودان المتحاربة . ونتيجة لهذا قامت على أنقاض اضطرابات العهد الذى سبق دخول المسيحية في بلاد السودان دولتان مسيحيتان هما : مملكة النوبة الشمالية او السفلى أو مملكة المفرة وعاصمتها دنقلة العجوز ، ومملكة النوبة العليا أو الجنوبية أو مملكة علوة وعاصمتها سوبا ومن المؤسف حقا ان معلوماتنا عن هاتين الدولتين ضئيلة لحد كبير وذلك لعدة أسباب منها :

(١) أن الدولتين قامتتا وظلتا قائمتين في الزمن الذى كانت فيه أوروبا قد دخلت فيما يسمى بالقرون المظلمة من تاريخها . فلم يعد الارتباط الذى كان قائما بين أوروبا وبلاد النوبة ممكنا ، واقطعت عنا حتى مثل الاخبار التى كان يدونها مؤرخو وجغرافيو الاغريق والرومان . ولم يصلنا من أخبار



الدولة البيزنطية الا اليسير عن قصة دخول المسيحية في السودان
« شكل ١٤ »

(٢) والسبب الثاني هو ان العرب قد استولوا على مصر في بداية القرن السابع ثم أخذوا يتقدمون جنوبا . وابتان دخول العرب مصر وتقدمهم جنوبا ، لم يكن يفهم أمر غير الفتح ، فلم يتعرضوا للكتابة عن أحوال النوبة حتى القرن العاشر . ولما تمكن العرب من التغلب على بلاد النوبة المسيحية ودخولها ، خربوا كنائسها ومعالمها ، فانسحت بذلك كثير من آثار مملكة المغرة المسيحية . وبعد تخريب دنقلا ، لقيت سوبا حتفها على يد جيوش الفنج والقواسمة . وكان تخريب سوبا مضرب المثل ، فلحقت آثارها المسيحية بآثار دنقلا .

وهكذا أصبحنا نجهل الكثير جدا عن هذه الحقبة من تاريخ السودان . والقدر اليسير الذي وصلنا اليه من المعلومات مرده الى المؤرخين المسلمين أمثال المسعودي وابن سليم وابن صالح الأرميني ، الذين كانوا يؤرخون لفترة دخول العرب في السودان . وهي لهذا تصور في غير دقة لفترة من العهد المسيحي ، وكذلك عرفنا قليلا عن الدولتين من الآثار البسيطة التي بقيت لنا بعد التخريب ، وبعد ان لعبت الرياح والأمطار دورها في تشويه هذه الآثار .

ومن المعلومات الضئيلة التي وصلتنا عرفنا أن الملكتين المسيحيتين ظلتا قائمتين في بلاد السودان حتى سقطت دنقلا العجوز في يد العرب رسميا عام ١٣١٧ م ، وسقطت سوبة عاصمة مملكة علوة في يد الفنج عام ١٥٠٤ م .

وقبل أن نختم هذا الفصل ، نورد بعض الأخبار القصيرة التي وردت في

كتب المؤرخين المسلمين ، والتي تصور لنا بعض النواحي الاجتماعية في السودان ، وما عرفناه عن هذه البلاد عن طريق الآثار فيقول المسعودي : « أما النوبة فافتقرت فرقتين : فرقة في شرق النيل وغربه ، وأناخت على شاطئيه ، فاتصلت ديارها بديار القبط من أرض مصر والصعيد في بلاد أسوان وغيرها .

« واتسعت مساكن النوبة على شاطئ النيل مصعدة ، ولحقوا بقرب من أعاليه . وبنوا دار مملكة عظيمة تدعى دقلة . والفريق الآخر من النوبة يقال لهم علوة ، وبنوا مدينة عظيمة سموها سوبا » .
ويصف أبو صالح الأرميني عاصمة المغرة - دقلة العجوز - في القرن الثالث عشر فيقول : « وهنا مقر الملك ، المدينة كبيرة ، وتقع على النيل المبارك ، وفيها كثير من الكنائس والبيوت الكبيرة ، وشوارعها واسعة ، وبيت الملك يزينه عدد من القباب التي شيدت من الطوب الاحمر ، وتشبه منازل الملك ، بيوت العراق » .

ويصف أبو صالح سوبا عاصمة علوة في نفس القرن فيقول : « تقع سوبا بمملكة علوة الى شرق الجزيرة الكبيرة ، الممتدة بين النيلين الأخضر والأبيض ، وبها مبان جميلة . وتزين المدينة الحدائق الغناء . وحاكم علوة أترى من حاكم المغرة لأن بلاده أوسع وأكثر خصبا وأعظم ريعا . والجياد الكريمة كثيرة في سوبا ، والكتب المتداولة بالاغريقية »
أما اذا رجعنا الى الآثار ، فاننا لانجد ما يضيف الى هذه المعلومات البسيطة شيئا يذكر . اذ أن معظم اثار الدولتين قد غفى عليها الدهر . وما بقى من الآثار لاتصل منه الى أكثر من ان النوبة ، عندما دخلت في الدين المسيحي حولت كثير من المعابد والهيكل الوثنية التي تنتمي الى العهود

السابقة الى كنائس • فطلوا النقوش الهيروغليفية ، والصور القديمة الوثنية بالطين ، وصوروا على الطلاء صور المسيح ، وبعض القديسين ، وكذلك شيّدوا كنائس جديدة في أماكن أخرى • وما زالت آثار بعض هذه الكنائس قائمة في بعض جهات السودان على ما سبق أن ذكرنا • وبدخول المسيحية والكتب المقدسة شاع استعمال اللغة الاغريقية ، والكتابة الاغريقية ، في أغراض الدين المختلفة ، كما شاعت لغة الاقباط المصريين في الكنائس كذلك وعظم الاتصال بين النوبة والاسكندرية ، اذ كان مطارنة النوبة يقدّمونها من الاسكندرية ، من قبل بطريرك الأقباط كما هو الحال بالنسبة لمطارنة الحبشة •

وكانت مملكة المغرة على وجه الخصوص أكثر اتصال بالامبراطورية البيزنطية ، عن طريق مصر ، ولذلك أثرت عليها • فكانت لغة الدين الاغريقية كما ذكرنا وكانت الكنائس تبنى على النمط البيزنطى ، وتزين حيطانها بالتماثيل والصور على غرار كنائس القسطنطينية •

يستفاد من الآثار أن أول ملك مسيحي على دقنة العجوز كان يدعى سلكو ، وأنه حارب البجه الوثنيين ، الذين كانوا يغيرون على ملكه • وانتصر عليهم وسجل هذا الانتصار بقوله : « انا سلكو ملك النوبيين والأثيوبيين ، حاربت البلاد من (البجه) ، ونصرنى الله ، ففتحت بلادهم ولما تذللوا الى أعينهم الأمان ، ورجعت لأجزاء مملكتى العليا على ملكى لا أتبع الملوك الآخرين ، ولكن أتقدمهم ، أنا أسد السهول ، ووعلى الجبال •

ولا شك في أن غارات البجه والقبائل الأخرى ، التى كانت تسكن الى

غربي النوبة المسيحية ، قد أضعفت النوبة المسيحية كثيرا •

وعلى الرغم من أن المسيحية قد دخلت السودان حتى أعالي جزيرة سنار ، ودخلت الكتب المقدسة ، وشاع استعمال اللغة الاغريقية والكتابة الاغريقية في أغراض الدين المختلفة ، كما شاعت لغة الأقباط في الكنائس على الرغم من هذا كله ، فقد بقيت الديانة المسيحية دين الطبقة الحاكمة ، وسكان الحضر وحدهم . ولم تتغلغل في السودان ، ولم يعتنقها أهل البادية وكان قسيسها ولغتها وكتبها تصل من الخارج . ولذلك لم يجد أهل السودان المسيحيون ، من يرشدهم الى امور دينهم . لما أن سقطت مصر في قبضة المسلمين ، وانقطعت الصلة بينهم وبين مصر . ولما سقطت دقلة العجوز في يد العرب نهائيا واعتنق ملوك المعرة الدين الاسلامي ، كان ذلك نهاية الدين المسيحي رسميا في السودان . وبمرور الزمن مالبت أن تلاشى هذا الدين واختفى حتى بين السكان الذين كانوا قد اعتنقوه من قبل .

محتويات الكتاب

صفحة	الموضوع
٣	مقدمة
٤	الفصل الأول : السودان في عصور ما قبل التاريخ
٤	أقدم انسان عرف في السودان
٥	علماء الآثار يفحصون جمجمة انسان سنجة
٦	الانسان الأول في غير السودان
٧	السودان في عصر انسان سنجة
٩	الحياة البدائية لانسان سنجة
١٠	أطوار حضارة الانسان في عصر ما قبل التاريخ
١٢	العصر الحجري القديم
١٣	النار
١٤	نشأة اللغة
١٥	المعتقدات
١٥	حياة الانسان أواخر العصر الحجري القديم
٢٠	العصر الحجري الحديث
٢٠	بداية الاستنقار
٢٢	حرفة الصيد
٢٣	استئناس الحيوان
٢٤	اختراع الزراعة
٢٦	نمو مساحة القرية
٢٧	صناعة الفخار
٣٠	التجارة

صفحة	الموضوع
٣١	عصر المعادن
٣٤	الفصل الثاني : السودان في عهد الدولة القديمة
٣٥	(١) السودان في العهد الطيني
٣٨	طرق التجارة
٤١	(٢) السودان في عهد بناء الأهرام
٤١	ملوك منفيس وعلاقتهم بالسودان
٤٩	المعاملات التجارية بين مصر والنوبة
٥٢	الفصل الثالث : السودان في عهد الدولة الوسطى
٥٢	حالة بلاد النوبة منذ نهاية الأسرة ٦ حتى قيام الأسرة ١٢
٥٣	بداية الدولة الوسطى
٥٤	ملوك الدولة الوسطى والنوبة
٦٠	حاميات السودان المصرية
٦٢	ثقافة كرمة
٦٤	مقارنة بين ثقافة كرمة والنوبة السفلى
٦٦	مستودع كرمة التجاري
٦٧	الهكسوس وأثرهم في السودان
٧٢	الفصل الرابع : السودان في عهد الدولة الحديثة
٧٢	طرد الهكسوس
٧٢	أحمس والنوبة
٧٣	أمنحيب الأول

صفحة	الموضوع
٧٣	تحتمس الأول
٧٥	تحتمس الثاني وحتشبسوت
٧٦	تحتمس الثالث
٧٧	أمنحيب الثاني
٧٨	أمنحيب الثالث
٧٨	أمنحيب الرابع (اخناتون)
٧٩	حور محب
٨٠	رمسيس الأول
٨٠	رمسيس الثاني
٨١	مرنبتاح
٨٢	رمسيس الثالث
٨٢	عوامل ضعف الامبراطورية
٨٤	١ - ادارة بلاد النوبة في عهد الدولة الحديثة
٨٩	٢ - حالة بلاد النوبة الاقتصادية في عهد الدولة الحديثة
٩٤	٣ - آلهة بلاد النوبة
٩٧	٤ - خدمات أهل النوبة في مصر
١٠٠	الفصل الخامس : مملكة نبتة (نباتا)
١٠٠	١ - حالة مصر قبل الفتح النوبى
١٠١	٢ - سيادة أمثوييا على مصر
١٠٣	٣ - ملوك نبتة
١٠٨	الملك كشتا

صفحة	الموضوع
١١٠	أسرة كشتا
١١١	الملك بعنخي
١١٦	الملك شيبكا
١٢٠	الملك شبتاكا
١٢١	الملك طهرقا
١٢٥	الملك تاتون آمون
١٣٠	الفصل السادس : مملكة مروى
١٣٠	١ - طرد الأشوريين من مصر
١٣١	٢ - الفرس وفتح مصر
١٣٢	٣ - قيام مروى
١٣٥	قائمة بأسماء ملووا نبتة بعد انفصالها عن مصر
١٣٨	قائمة بأسماء ملوك مروى
١٤٤	تدهور دولة مروى
١٤٥ - ١٤٦	الفصل السابع : السودان والمسيحية
١٤٦	١ - ظهور المسيحية
١٤٦	٢ - اضطهاد المسيحية
١٤٧	٣ - انتصار المسيحية
١٤٧	٤ - المسيحية في مصر
١٤٨	٥ - دخول المسيحية في السودان
١٤٩	رسل ثيودورا وجستينان
١٥٢	قيام مملكتى النوبة المسيحية

الخرائط واللوحات

صفحة	الأشكال
٨	(١) الوديان
١١	(٢) ، (٣) ، (٤) أدوات حجرية من العصر الحجري القديم
١٦	(٥) الحواف البري
٢٥	(٦) عصر ما قبل التاريخ في مصر
٢٨	(٧) أدوات العصر الحجري الحديث
٣٧	(٨) أواني فخارية
٤٠	(٩) طرق القوافل
٤٤	(١٠) النوبة السفلى
٤٨	(١١) النوبة العليا
٩٥	(١٢) بعض آلهة بلاد النوبة
١١٨	(١٣) خريطة الشرق القديم
١٤٢	(١٤) مسالك النوبة المسيحية ومراكز الآثار بها





Princeton University Library



32101 106113341